

تاريخ سيناء

مقدمة :

منذ فجر التاريخ ولشبه جزيرة سيناء منزلة رفيعة في قلب مصر فهي درعها الواقية وبضعة من وجدانها الصافي .

ولهذا خصها الفرعون (سمرخت) بنصب عظيم أقامه في وادى المغارة تمجيدا لآلهة سيناء المقدسة . كما أن لسيناء في تاريخ مصر الفرعونية آثار خطيرة ، فلا يكاد عصر من عصوره يخلو منها ، فوقعها الجغرافى خطير جعلها بمثابة حلقة الوصل بين أكثر بلاد الشرق في حوض البحر الأبيض . وتزداد قيمتها أو تنقص تبعا لحاجة كل قطر إليها أو علاقته بها ، فن شعوب تلك الأقاليم من كان يتصل بها قاصدا إليها ، ومنها من كان يتصل بها ليعبرها مشرقا أو مغربا .

وكانت جنات مصر الخضراء تغرى قبائل البدو المقيمة شرق سيناء بالإغارة عليها عبر سيناء ، واضطر فراعنة الوادى إلى الإكثار من الحملات العسكرية لتأديب البدو المغيرين ولتأمين عمال المناجم الذين كانوا يقصدون إلى شبه الجزيرة لاستخلاص النحاس والفيروز من مناجمها الغنية ، وكانت من مقومات بناء الحضارة المصرية منذ فجر تاريخها .

وقد طمعت في سيناء بابل وآشور من أجل هذه المعادن . وعلى أرض سيناء التقى المصريون والبابليون والآشوريون منذ أقدم العصور وترك ذلك طابعه على حضارات هذه الممالك .

ولعل في اسم شبه الجزيرة ما يشير إلى اتصالها بتلك الشعوب السامية الشرقية لأن اسمها متصل في الغالب باسم إله القمر (سين) معبود الساميين ، فقد عرف وقدس بهذا الاسم في بابل وبلاد النهرين وأخيرا في جنوبى بلاد العرب .

ولم تكن سيناء معبرا للقبائل المغيرة على مصر كباب مدخلها الشرق إلى وادى النيل أم للحملات المصرية إلى غرى آسيا ، بل كانت أيضا محطة تستريح بها قوافل التجار الفينيقيين في تردددهم بين مدائن الساحل الفينيقي وشمالى أفريقيا الغربى . وكان لها من هذه الناحية أثر خطير في التجارة وتبادل السلع بين

المصريين وسكان أقاليم الشرق القريب ، ولم تستطع الحروب التي قامت بين مصر وأقطار الشرق أن تقضى عليها ، بل كانت في أكثر الأحيان عاملا من عوامل تنشيط الحركة التجارية ، إذ كان التجار يرافقون الجيوش ويسرون معها حاملين في ركابها كثيرا من السلع المختلفة ليتجروا فيها مع سكان الشرق ، وقد استقبلت مصر عن طريق سيناء كثيرا من طوائف العبيد والجواري يساقون إليها أفواجا من بلاد الشام : العبيد للعمل في خدمة المعابد ، والجواري للعمل في حريم فرعون .

كما استقبلت قطعانا من الثيران الضخمة تساق إلى مصر من أقاليم الحيثيين ومن ورائها قطعان من الخيل التي عرف المصريون منذ أيام الهكسوس كيف يستخدمونها في الحرب والسلم . كذلك استوردت مصر من أقاليم الشام بضاعات أخرى كالسمك والملح وخشب الأرز وبعض الزيوت والأنبذة وآلات الموسيقى والمصنوعات الجلدية .

واستقبلت مصر في عصورها المختلفة قوافل أخرى من بلاد النهرين والخليج الفارسي تحمل إليها المنسوجات الصوفية والجلود والزيت والخصير من بابل ، فسلك الطريق إليها مارة بأرض شرق الأردن إلى بلاد سيناء ، وكانت مصر الغنية بجيوبها وغلاتها ترسل القوافل المحملة بها إلى بلاد الشرق عبر سيناء ، وعلى الأخص إلى أرض الكنعانيين الذين كانوا يجيئون إليها عندما يشتد بهم القحط ، وحوادث مجيئهم إلى مصر قد عرفت غير مرة : جاءوها مرة إبان حكم الأسرة الثانية عشرة ، وصورت قوافلهم في قبر أمير من حكام الإقليم السادس عشر (بنى حسن)

وجاءوها مرة أخرى في أعقاب يوسف بن يعقوب وقصة ذلك ذكرت في الكتب الساهوية . ولم تقتصر أهمية سيناء على ما قدمنا ، بل أدت دورا هاما في تاريخ الحرب في مختلف الأزمنة ، شهدت إغارات البدو على حدود مصر الشرقية ، وشهدت بعثات فرعون العسكرية منذ أيام الأسرات الأولى لضرب أولئك البدو من أهل شبه الجزيرة ومن حولها وعلى صخورها سجل الفراعنة أخبار تلك الحملات بالصور والرسوم .

ولما تقدمت الأيام بمصر واتسعت آفاق فرعون السياسية وفطن القصر إلى رسائل الخطر السياسي تنبعت على وادي النيل نتيجة أطماع الحيثيين عبر الشرق القريب جعل المصريون من شبه الجزيرة مرقبا يحرسون عنده حدود الوادي ويدودون عن سيناء ويدبرون أمر تأمينها من شر المغيرين ، كما اتخذوا من ميدانها مهبا لعواصف الزحف يوم يترأى لهم الخطر من وراء الأفق القريب تنتقل موجاتها في ركاب جيوشهم مشرقة ومصدعة بين ربوع الشام وعلى أرض الجزيرة . فلم تكد حرب الاستقلال على يد (أحمس الأول) تنتهي إلى ما انتهت إليه من طرد الهكسوس وزوال سلطانهم من عالم الوجود حتى نهضت مصر نهضتها المعروفة أيام الأسرة الثامنة عشر : فقاد أكثر ملوكها جيوشهم إلى أقاليم الشرق ولبعض الملوك من أمثال تحوتمس الأول والثالث وأمينوفيس الثاني في ميادين الشرق صولات وحولات .

وتتابع خلفاؤهم ، فاستأنفوا ذلك النشاط العسكرى لإقرار السلام فى الشرق وإخماد الثورات فى فلسطين ، كما وقع فى أيام توت عنخ آمون وحور محب ، وفى أيام سبتى الأول إلى أن كانت أيام رمسيس الثانى فحمل حملته المشهورة عبر سيناء لملاقاة الحيثيين حيث هزمهم عند قادش . وتصاب مصر بنوبات من الضعف السياسى والاقتصادى فتتطلع إليها أُم أخذت تنهض فى الشرق مثل آشور التى أدركت جيوشها مصر فى منتصف القرن الثامن ق . م . ثم تتخلص منها بعد ذلك وما تكاد تنسم نسيم الحرية حتى تظهر دولة الفرس ، فيسوق ملكها قبيز جيوشه على مصر ، فتدخلها عام ٥٢٥ ق . م بعد أن غلب كثيرا من الأقاليم والبقاع فى غرب آسيا ، ثم يظهر الإسكندر فيغلب أمة الفرس بعد مصرع ملكها (دارا) ، ويظل يتبخر على أرض الشرق القريب حتى يصل إلى مصر فيدخلها عبر سيناء عند أواخر القرن الرابع .

ولما حكم البطالمة مصر كانت نظرهم إلى الشرق أشبه شئ بنظرة الفراعنة فى أواخر القرن السادس عشر ، فأخذت جيوشهم تعبر سيناء لاسترداد بعض أقاليم فلسطين ، وطوت الأيام عهد البطالمة وأكلت من ورائه سلطان الرومان وكان نجم الإسلام قد أخذ يتلأأ فى سماء الوجود فساق المسلمون جيوشهم إلى مصر فدخلوها عبر سيناء عند منتصف القرن السابع الميلادى .

وظلت شبه الجزيرة تشهد حركات الجيوش من وراء ذلك أيام حروب الصليبيين وعلى عهد المماليك وفى زمن الأتراك العثمانيين ثم ملحمة الفرنسيين عند أواخر القرن الثامن عشر حينما حاول بوناپرت أن يبعث إمبراطورية فرنون تحت راية فرنسا فساق جيوشه إلى الشام عبر سيناء . وأنكرت الأيام عهد الفرنسيين فى الشرق . حتى ساق الأقدار محمد على ذلك الجندى المجهول الذى أصبح واليا على مصر ليرمى بصره نحو الشرف ، فيتشر جنوده فوق ربوعه ومازال يسوقهم حتى أدرك بهم بلاد الأناضول (آسيا الصغرى) .

وينحسر المد المصرى بأيدى البريطانيين عند أواخر القرن الماضى ، فتغدو شبه جزيرة سيناء موصلا بينها وبين أملاك العثمانيين فى الشرق .

ولن ننسى أن شبه الجزيرة كان ذا أثر دينى فى حياة الشرق ففيه قدس المصريون القدماء معبودتهم حاتحور ، وجعلوها ربة للمناجم التى استغلوها فى صخور سيناء .

وهناك راحت إيزيس تبحث فوق قمم الجبال عن رفات أوزوريس إله النماء والخصب ، وحمل جبل طور سيناء المقدس اسم جبل حوريب وكانت تقطنه فى عقائد المصريين القديمة أرباهم القدماء . وفيها قدست الشعوب السامية - وفى مقدمتها شعوب النهرين - معبوهم (سين) وكان إله القمر وقد كان من المعبودات الشهيرة ، وكان معبده العظيم فى (أور) وكان الملوك يفاخرون بالانتساب إليه .

ثم أدى شبه الجزيرة دوره مرة أخرى فى الحياة الدينية فإليه خرج موسى يقود بنى إسرائيل من مصر

وهناك لقي فيها (يهوى) ذلك المعبود الذى عرفته كنعان وجعلته رمز الهواء والبرق والرعد ومن قبل كان موسى قد عرفه فى غرب آسيا عندما فر إليها هاربا من مصر خشية انتقام الملأ من أهل صديقه وخوفا من القضاء أن يسكه ثم يأخذه فى دين فرعون ، هنالك لقي موسى ربه الذى ناداه من جانب جبل الطور الأيمن ثم بعث به إلى فرعون كما ذكرت بعض كتب السماء .

وعن طريق شبه الجزيرة أخذت المعبودات المصرية طريقها إلى ربوع الشرق فقدست (حانخور) وانتشرت عبادة (آمون) على ساحل فينقيا منذ أيام الأسرة الثامنة عشرة ومن قبل اتصلت عبادة أوزوريس بوادى الأرز فى لبنان واتصلت الحياة الدينية وطقوس الجنارة عند المصريين بمحصولات لبنان .

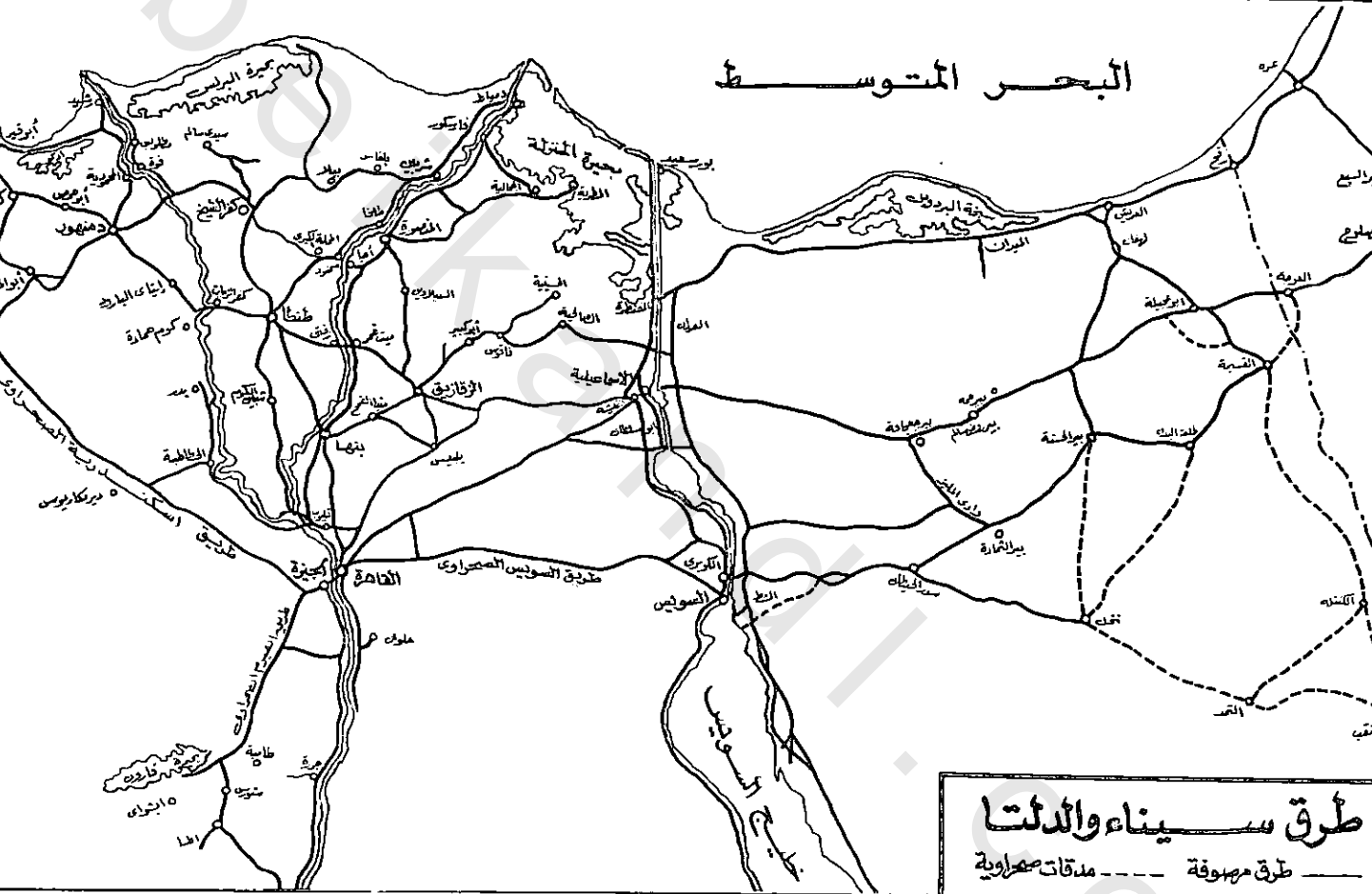
وعن طريق شبه الجزيرة عرفت المعبودات السامية طريقها إلى مصر فدخلها (بعل) فى ركاب المكسوس ودخل بعضها عن طريق أسرى الحرب من الكنعانيين مثل معبودهم (حورون) وكان يعبد على هيئة الصقر فساوا بينهم وبين صاحب صنم (أبو الهول) القائم فى صحراء الجزيرة .

وتأثر المصريون من أهل العصور المتأخرة فى تسمية معبودهم باسم (حورون) هذا الذى عكف الكنعانيون على عبادته فى مصر وحرف الاسم أحياء إلى (بوهول) . (بوهول - أبو الهول) .

ومنها ما أدخله بعض فراعنة الأسرة الثامنة عشرة من أرباب الحرب والقوة مثل (عشتارة) ، (ورشب) وقد تعشقها (أمينوفيس الثانى وتحتس الرابع) وكان (أمينوفيس الثانى) ملكا قويا غلابا رزقه الله من قوة البدن وشدة الساعد ما جعله موضع الفخر عند أهل زمانه .

عرفت تلك المعبودات طريقها إلى مصر ، واتخذت أماكنها الرفيعة فى المعابد المصرية ، وكان (لعشتارة) معبدا فى (منف) وكان الفراعنة يفاخرون بالتقرب إلى تلك المعبودات يتركون بها ويطلبون عندها الخير والمعونة ويخرج أمينوفيس الثانى على رأس جيشه إلى آسيا فيشبه قومه بالمعبود (رشب) وهو يعبر فخاض الأورنت فى شجاعة وخفة . ويمرض فرعون مصر أمينوفيس الثالث مرضه الأخير ، فيرسل إلى صهره ملك ميثانى ليعث إليه بدمية (عشتارة) ليحذر بها من شر المرض .

البحر المتوسط



طرق مهيمنة والدلتا

طرق مهيمنة --- ملاقات صحراوية

obeikandi.com

سيناء في العصر الفرعوني

ليست شبه جزيرة سيناء هي المنطقة الوحيدة في مصر التي بها خامات النحاس ، ولكن يمكننا القول بأن هذه المنطقة هي أقدم المناطق التي ترك فيها القدماء نقوشاً تثبت استغلالهم لها . ولكن المادة التي ورد اسمها في النقوش هي (المفكات) ، وأن منطقة المغارة كانوا يشيرون إليها في النقوش ويسمونها «خيتومفكات» : أى مدرجات المفكات ، ولكن النقش رقم ٢٣ فقط بمنطقة المغارة قد ورد فيه ذكر معدن آخر وهو «بيا» أحضرته تلك البعثة مع الـ «مفكات» .

وقد ظن في بادئ الأمر أن المفكات هو النحاس ، ولكن ثبت أخيراً بعد تقدم الأبحاث اللغوية أن المفكات هو الفيروز وأن الـ «بيا» هو النحاس . ومن الكتابات المصرية التي تركتها بعثات التعدين وعلى الأخص في المغارة وسرايت الخادم وما حولها - نجد أن كلا من الفيروز والنحاس فيهما ، وأن آثار العمل واضحة في استخراج كل منهما ، ولكن استخراج الفيروز كان على نطاق واسع . وليس من المستبعد أن يكون استغلال وادي المغارة لاستخراج النحاس قد بدأ في العصور القديمة وفي أثناء ذلك اكتشف الفيروز ، غير أنه حدث بعد اكتشاف مناجم للنحاس في الصحراء الشرقية أن اقتصرَت البعثات على الفيروز فقط ، ولكن من حين إلى حين كانت تستغل خامات النحاس الموجودة حتى في سيناء ، ولم يبق هناك إلا القليل منها . إن المغارة وسرايت الخادم أهم مناطق التعدين القديمة في سيناء ، وستحدث عنها تفصيلاً فيما بعد ، ولكن هناك أماكن أخرى استخرج المصريون منها النحاس أيضاً وأهمها :

١ - وادي نصب :

يتفرع هذا الوادي من وادي سوويق على مقربة من التفائه بوادي بيع ، وأهم ما فيه الكمية الكبيرة من بواقي النحاس المصهور التي يصل ارتفاعها بين ١٨٠ سم ، ٢٤٠ سم ، وتغطي مساحة اختلف الباحثون في تقديرها : فقدروا أحدهم بأن طولها ١٦٧ ياردة ، وعرضها ١٠٠ ياردة وللتحقق من صحة التقدير يحتاج إلى عمل خاص لرفع الرمال المتراكمة على أطرافها كما أن في آخر

الوادي تقريباً كمية أخرى ، كما ذكر بترى أن وزن الكمية الرئيسية للمخلفات حوالي ١٠٠,٠٠٠ طن . وقد عثر في وادي نصب أيضاً على نقايا قرنين نصهر النحاس ، وكانت الحامات التي تصهر في وادي نصب بعضها يأتي من سرايت الحادم ويأتي بعضها الآخر من وادي خريط الذي يتفرع من وادي ببع وبني « ن » ، وأيه على وجود طريق بين الواديين ، وقد صنع القدماء لوحات مكتوبة ما رلت إحداها باقية في أعلى وادي نصب من عهد الملك أمنمحات الثالث من الأسرة الثانية عشرة ، وهذا الطريق كان يمر أيضاً بوادي روض العير الذي توجد به نقوش أيضاً حتى يصل إلى مكان على مقربة من المعد في سرايت الحادم ، وهما يساعد على اختيار وادي نصب مركزاً لنصهر حامات النحاس وجود المياه به للنعال وأشجار للوقود .

٢ - وادي خريط :

في هذا الوادي الصغير الذي يتفرع في الناحية الغربية من وادي ببع بعد وادي النصب بما يقرب من ٢ كم - نرى في الجهة الغربية منه منجماً قديماً قطعه القدماء في طبقات الفحم والمنحيز ، وهذا المنجم ليس إلا سرداباً غير مستقيم الشكل ينزل في باطن الأرض طوله نحو ١٠٠ متر وعرضه عشرة أمتار وارتفاعه متران في المتوسط .

ولم يمس القدماء خامات الحديد أو المنجنير بل تركوها ولم يأخذوا إلا خامات النحاس الموجودة في هذه المنطقة من الصخر ، ومن الأرجح أن العصر الذي كان العمل جارياً فيه هو نفس العصر الذي كان المصريون القدماء يعملون فيه في سرايت الحادم وادي نصب . ومن الواضح أن الطريق الذي كان يوصل إليه من فوق الصخور كان خيراً مما هو عليه الآن ، وكان صالحاً لسير الحمير التي كانت تنقل خامات النحاس لتوصيلها إلى وادي نصب لنصهرها ، وظل هذا الوادي الصغير غير معروف للباحثين عن تاريخ سيناء حتى ١٩٣٠ عندما اكتشفت البعثة المشتركة من جامعتي هارفارد وواشنطن الكاثوليكية عدداً كبيراً من النقوش .

٣ - وادي أم ثمايم :

وهناك نقوش مصرية في وادي آخر ، وهو أم ثمايم الذي كانت تأتي إليه البعثات لاستخراج الفيروز في أيام الدولة الوسطى ، وهذا الوادي قريب من المغارة ، ويصف العالمان جاردنر وشرى الطريق الموصل إليه بأنه إذا سار الإنسان في وادي قنية الذي فيه جبل المغارة ويسير في وادي سدرة متحهاً أولاً نحو الجنوب ثم يتجه نحو الغرب يرى على الجانب الشمالي بعد سيره ميلاً ونصف الميل على وجه التقريب مدخل وادي أم ثمايم .

وقد لاحظ بالمر في عام ١٨٧٨ وجود أثر من عمل القدماء في استخراج معادن هذا الوادي ، وفي

عام ١٩٠٥ زار «ثى» هذه المنطقة ، وقد عثر فى مجرى الوادى على صخرة عليها بعض كتابات ، وعلى مقربة منها بعض المغارات القديمة المهدامة ، وقد ذكر «ثى» عدم توفيقه فى حل معظم نقوشها ، كما أنه لم يعثر على اسم أى ملك فى أى نقش ، ولكنه يعتقد أنه من الأسرة الثانية عشرة .
وعلى مقربة من سهل سند نجد أن القدماء قد قطعوا فى صخر الجبل مسافة استطاع هيوم أن يقدرها بميلين ويقول عنه : إن خاماته غنية جداً بكرىونات النحاس الزرقاء (الأوزديت) . فى التلال التى غرب سهل بنك شرم ، وقد ذكر هيوم أن جزءاً من الحام الذى هناك هو من الملخيت وربما كان هو المعدن الذى عنى القدماء بتعدينه . ولكن هناك فيه خامات أخرى من مركبات النحاس . كما أن هناك أيضاً بقايا العمل القديم لاستخراج النحاس وصهره فى مكان على مقربة من وادى رمى وهو أحد الوديان المتصلة بوادى نصب الذى يصل إلى خليج العقبة على مقربة من دهب ، وهو غير وادى نصب الذى على مقربة من سرايت الخادم ، وقد ذكر لوكلس هذا الوادى فى كتابه . وهناك أيضاً كمية من مخلفات صهر النحاس عند جبل سفريات جنوب جبل حبران وليس هناك نقوش ، ولكن بقايا العمل القديم ما زالت واضحة هناك .

وادى المغارة

إذا رجعنا إلى الخرائط الرسمية لا نجد مكاناً يسمى وادى المغارة ، وإنما يطلق بدو سيناء اسم المغارة على منطقة صغيرة من وادى قنية الذى يتفرع من وادى أفا ، وبعبارة أدق يطلقون هذا الاسم على مسافة لا يزيد طولها على خمسمائة متر من الناحية الغربية من الوادى وهى الجبل الذى فيه العروق التى كانوا يستخرجون منها الفيروز ، وربما كان جبل المغارة أقرب إلى الصحة ، ولكنها غير مستعملة بين بدو المنطقة وما رالت هناك فى الناحية الشرقية من الوادى بقايا أكواخ العمال القدماء فوق أحد المرتفعات . ولكن النقوش الهامة لم يعد باقياً منها أى نقش ، إذ تحطم بعضها ، ونقل الباقي إلى المتحف المصرى . ولقد ظلت هذه النقوش سليمة حتى عام ١٨٩٧ وقد أخذت لها صور فوتوغرافية ، وعملت لها طبعات بالورق بمعرفة المغامر الإنجليزى الميجور ماكندونالد ، وما زالت هذه الطبعات محفوظة حتى الآن فى المتحف البريطانى ، وقد أفادت كل المشتغلين بدراسة نقوش المغارة ، وكانت منطقة المغارة حتى عام ١٨٩٧ عندما فحصت وصورت نقوشها تكاد تكون كما تركها المصريون القدماء ونقوشها فى أماكنها على جانب أو فوق فتحات المناجم القديمة وكانت هذه المناجم نفسها سليمة . ولكن حدث فى عام ١٩٠١ أن تكونت شركة إنجليزية جديدة لاستغلال الفيروز فلجأت لسوء الحظ إلى أسوأ أساليب العمل ، فكانوا ينسفون بالديناميت الطبقة الصخرية التى تحتوى على الفيروز دون مراعاة للنقوش القديمة أو للمناجم القديمة ، فحطموا هذه وتلك ، وسرعان ما تعلم أهل سيناء الطريقة الجديدة فى الحصول

على الفيروز ، فاستمر التخريب إلى أن حل عام ١٩٠٥ وذهبت بعثة بترى إلى هناك ووجد بترى أن خير حل لإنقاذ ما بقى من نقوش هو نقلها إلى المتحف المصرى ، فجمع هو وكبرى ما تبعثر من نقوش حطمتها الديناميت ، وقطعوا ما ظل سليماً منها نظراً لارتفاعه ، وحملوا كل ذلك إلى الشاطئ حيث نقلته سفينة إلى السويس ومنها إلى القاهرة . ولم يبق في جبل المغارة إلا رسم واحد كبير وهو النقش المعروف باسم لوحة سمرخت في مكاها مرتفع جداً ، ويصعب الوصول إليه فظل هناك .

والجميع الكامل للنقوش التي كانت في وادى المغارة قبل تحطيمها والتي وصلت صور منها إلى العلماء هو ٤٥ نقش ، منها ٢٢ من الدولة القديمة ، وعشرون من الدولة الوسطى ، واثنان من الدولة الحديثة ، وهناك إجماع على أن أقدم النقوش في وادى المغارة هو نقش الملك « سمرخت » سابع ملوك الأسرة الأولى ، وهو الوحيد الذى بقى في الوادى وربما يكون قد قطع من مكانه ، وكان معتقداً أن مثل هذا الرسم يمكن نسبته إلى الأسرة الأولى ، ولكن في عام ١٩٥٤ أظهرت الحفائر في سقارة أن هناك هرمأً أفتقياً بناء الملك (سخم خت) الذى حكم في الأسرة الثالثة بعد الملك زوسر ، واتضح في الحال ، من طريقة كتابة اسمه أنه هو ذات الملك صاحب نقش سيناء ، وبذلك يتحتم علينا الآن ألا ننطق اسمه بسمرخت وأنه من الأسرة الأولى بل « سخم خت » وأنه من الأسرة الثالثة ، وأن زوسر هو أول الملوك الذين خلفوا نقوشاً في المغارة ، وأن ملكين آخرين من ملوك هذه الأسرة وهما (سانخت) و (سخم خت) تركا أيضاً رسومهما هناك ، ونقش زوسر في حكم المفقود الآن ، أما نقش سانخت فقد تحطم في أثناء تخريب المناجم عام ١٩٠١ والنصف الآخر في المتحف المصرى . أما نقش سخم خت فما زلنا لا نعرف إن كان في مكانه أم لا ونقش خوفاً الذى كان من أجمل وأفخم نقوش سيناء قد تحطم ولا يوجد منه إلا بعض قطع نقلت إلى المتحف ومن الأسرة الرابعة هناك أيضاً نقشان للملك سفرو مؤسس الأسرة ، وهو الآن في المتحف المصرى .

وإذا ما وصلنا إلى الأسرة الخامسة نجد أنه كان هناك نقشان للملك ساحورع نقل أحدهما إلى المتحف المصرى والآخر إلى متحف بروكسل . ومن هذه الأسرة أيضاً نقش الملك نوسرع ، وكان أكبر نقوش المغارة وقد نقل إلى المتحف المصرى ، والملك منكاه وحوار له نقش هام في المتحف ، والملك زو - كارع - إسيس كان له ثلاثة نقوش تحطمت كلها .

ومنذ منتصف الأسرة الخامسة أصبح هناك تقليد مستخدم يظهر في النقوش ، وهو أنه بدلاً من ذكر الملك فقط أو الملك ومعه رئيس بعثة التعدين أصبح يذكر أيضاً بجانب هؤلاء أعضاء البعثة من العمال الفنيين ، ونرى هذا التقليد مستمراً في الأسرة السادسة في كل من نقش الملك ببي الأول الذى تحطم الآن ونقش الملك ببي الثانى الذى لقي نفس المصير ، والنقوش التى أشرنا إليها حتى الآن عددها سبعة عشر ذكر في كل منها اسم الملك الذى عملت في عهده ، ولكن يوجد أيضاً خمسة نقوش أخرى من عهد الدولة القديمة لا تذكر تاريخاً محدداً ، وهى لا تحوى شيئاً أكثر من اسم الشخص ولقبه .

نقوش الدولة الوسطى :

انتهت الأسرة السادسة على إثر ثورة اجتماعية اجتاحت البلاد ، وقضت على البيت المالك ، ثم توالى الأسرات حتى الأسرة العاشرة ، وكان كل ملك منها يدعى أنه حاكم الصعيد والدلتا ، ولكن كان هناك أكثر من بيت مالك يحكمون جميعاً في وقت واحد ، ويدعى كل منهم أنه سيد التاجين ، وظلت الحال هكذا حتى تمكن حكام بيت طيبة من هزيمة حكام بيت أهناسيا ، وأخذ ملوك هذا البيت الذين نعرفهم تحت اسم الأسرة الحادية عشرة أو أسرات الدولة الوسطى يصلحون ما أفسدته الأيام . ولسنا نتوقع إرسال بعثات إلى سيناء في هذا العهد المضطرب ، ولذا لا توجد أى بعثة إلى المغارة طوال حكم الأسرات من السابعة حتى العاشرة ، بل لا نجد أى نقش لواحد من ملوك الأسرة الحادية عشرة والملوك الأوائل من الأسرة الثانية عشرة برغم اهتمامهم باستغلال المناجم ، كما نعرف من نقوش وادى الهودى ووادى الحمامات .

ومن المرجح أن تكون بعض البعثات التي ذهبت إلى سيناء خلال عهد الدولة الوسطى بعد الأسرة السادسة قد وجدت مصدراً هاماً آخر لاستخراج الفيروز من سرايت الخادم ، ولم تقتصر على المغارة سواء كان هناك عمل في سرايت الخادم في الأسرة الحادية عشرة أم لم يوجد ، فإن هذه المنطقة في عهد الأسرة الثانية عشرة كانت أهم بكثير من منطقة المغارة ، وعثر بين نقوشها الكثيرة على اسم الملك أمنمحات الثالث وأمنمحات الرابع . ومن دراسة نقوش كل من المغارة وسرايت الخادم نرى اهتمام الملك أمنمحات الثالث باستخراج الفيروز .

ففي سرايت الخادم خمس لوحات من عهده وفي المغارة عشر لوحات وقد تحطم أكثرها ولم ينج منها إلا ثلاث فقط نقلت إلى المتحف المصرى . وما يدعو إلى الدهشة أن الملك أمنمحات الرابع اهتم اهتماماً شديداً بالحصول على الفيروز فأرسل أربع بعثات : واحدة إلى سرايت ، وثلاثاً إلى المغارة حيث تركت لوحات ذكرت عليها تاريخ حضورها وأسماء من أتوا معها ، وإلى جانب تلك اللوحات المؤرخة ثمانية نقوش أخرى غير مؤرخة نقشها بعض العمال الذين أتوا إلى المنطقة .

وتعرضت مصر في آخر أيام الأسرة الثانية عشرة إلى فترة أخرى من فترات الضعف وهى عهد الفترة الثانية أو الانتقال الثانى الذى شمل أيام الأسرات الثالثة عشرة حتى آخر السابعة عشرة بما في ذلك حكم الهكسوس . ولا نجد في المغارة اسم ملك من ملوك تلك الأسرات ، بل إنه لا يوجد إلا نقش واحد من عهد الأسرة الثامنة عشرة يرجع تاريخه إلى السنة السادسة عشرة من الحكم المشترك بين حتشبسوت وتحتمس الثالث وقد رسماً معاً في تلك اللوحة إلى جانب المنجم الجديد الذى قامت البعثة بفتحه ، وربما كانت هناك لوحة أخرى من عهد الملك رمسيس الثانى لم يرها إلا العالم الألمانى إيبرس ، وعلى كل حال فإن مناجم الفيروز في المغارة قد تركت نهائياً بعد الدولة الحديثة بعد أن تحولت البعثات

إلى منطقة سرايت الخادم على نطاق واسع ابتداء من الأسرة الثانية عشرة . وخيم السكون بعد ذلك على المغارة . فلم يكن يقصدها إلا بعض البدو الذين كانوا يأتون من آن لآخر لاستخراج الفيروز . ثم جاء بعد ذلك العصر الحديث برحلاته وعلته حيا والمخرين حيناً آخر ، وبالرغم من نقل كل النقوش من هذا المكان فإن زائر المعارة سيحد الكثير مما يعوضه : فهاظر الجبال الشاهقة على طريق وادي سدرى ووادي أقتا ، ثم وادي قنية وجمال ألوان طبقاتها وبقايا المباني القديمة هناك . تملك على الإنسان مشاعره ، ويرى نفسه مضطراً إلى التفكير في الحدود القدماء ، وكيف تيسرت لهم معرفة الصخور والتفكير في هذا الوادي الهادئ الآن ؟ وكيف كان يعج بمئات العمال الذين كانوا يأتون إليه بين آن وآخر ؟

وادي مكتب :

وعلى مقربة من المغارة في مكان يقال له وادي مكتب على الطريق الموصل إلى فيران والمناطق الجنوبية من شبه الجزيرة - آلاف من النقوش النبطية واليونانية والعبرية منذ أيام العصر المسيحي والقرون التالية ، وأكثرها نقوش لا تعدو اسم كاتبها وجملته قصيرة ، وقد درست كلها منذ وقت طويل ، وكثيراً ما يشار إليها باسم النقوش السينائية وخصوصاً النبطية منها . ولكن دراسة نقوش وادي مكتب لم تصف إلى معلوماتنا التاريخية برغم إفادتها لغوياً ودينياً لأن أكثرها لا يعدو جملة قصيرة . ولا تقتصر هذه النقوش على وادي مكتب وحده ، بل نجدها متناثرة على طول الطريق بين وادي قنية الذي فيه جبل المغارة ، ووادي فيران الذي كان أهم مراكز الرهمان في العصر المسيحي المكر .

الأسرات

الأسرة الأولى والثانية : (٣٢٠٠ - ٢٧٨٠ ق . م) .

بدأ اسم الفرعون (سمخت) أحد فراعين الأسرة الأولى يتردد في المؤلفات الأثرية على أنه صاحب النقش الكبير الذي في وادي المغارة بسياء وإن كان بعض العلماء يعتقد أن ذلك النقش لا يمكن أن يكون من عهد الأسرة الأولى ، وإنما هو للملك (سخم خت) الذي تولى الملك بعد (زوسر) في الأسرة الثالثة .

الأسرة الثالثة : (٢٧٨٠ - ٢٦٨٠ ق . م) .

أرسل زوسر الأول حملة لتأديب بعض بدو شبه الجزيرة الذين كانوا يتعرضون للحملة التي كان يرسلها ملوك مصر لإحضار النحاس من المناجم التي كانت على مقربة من جبل المغارة ، وكان المصريون قد بدءوا في تعدين الفيروز والنحاس في شبه الجزيرة منذ عهد الدولة الأولى ، وبعد ذلك بأجيال عدنوا الفيروز في سرايت الحادم ، وعدنوا النحاس في وادي النصب الغربي ، وكانوا يستخدمون ميناء أبو زنيمة إذا كانت وجهتهم سرايت الحادم وميناء أبو رديس إذا كانت وجهتهم وادي المغارة . وكانت حملات التعدين تذهب من مصر مرة كل سنة أو سنتين في فصل الشتاء (شهرى نوفمبر وديسمبر) وتبقى إلى أن يشتد الحر في شهر مايو ، فتعود بما استخرجته من معادن .

الأسرة الرابعة : (٢٦٨٠ - ٢٥٦٠ ق . م) .

سنفرو : أرسل (سنفرو) حملات التعدين إلى شبه الجزيرة ، وقد خلف رجاله ذكرى تلك الحملات على الصخور بجبل المغارة على مقربة من مناجم النحاس والفيروز في تلك المنطقة ، وبالرغم من أن سنفرو لم يكن أول ملك استغل مناجم سيناء أو أرسل حملات لتأديب الخارجيين على القانون من البدو فإن الأجيال القادمة اعتبرته أنه حام للمنطقة إلى جانب المعبودين (حتحور وسويد) لأن أعماله في تأمين حدود مصر الشرقية وما قام به من تحصينات هناك أصبحت المثل الذي يحتذى به . وفي

أحد النصوص التي كتبت بعد وفاته بما يقرب من ألف سنة يفتخر أحد الملوك بأعماله هناك ، ويؤكد لنا أنه لم يقم أحد بمثل ما قام به منذ أيام سنفرو .

خوفو : بعد أن تولى خوفو عرش مصر (٢٦٥٦ - ٢٦٣٣ ق . م) أرسل حملات إلى جبل المغارة في سيناء لإحضار الفيروز وربما النحاس من هناك ، وكانت تجارة مصر الخارجية وبخاصة مع الشاطئ الفينيقي مزدهرة ، ومن المرجح جداً أنه كانت تقيم في مدينة جبيل (إلى الشمال من بيروت الحالية) جالية مصرية للتجارة منذ أيام الأسرة الثانية ، وكان هذا من الأسباب التي أدت إلى العمل على تأمين طرق التجارة عبر سيناء .

الأسرة الخامسة : (٢٥٦٠ - ٢٤٢٠ ق . م) .

اهتم الملك (جدكارع أسيس) (٢٤٧٦ - ٢٤٢٨ ق . م) بتأمين حدوده واستغلال المناجم والمهاجر في سيناء ، فأرسل عدة حملات إلى جبل المغارة ، وقد تركت هذه الحملات أربعة نقوش باسمه .

الأسرة السادسة : (٢٤٢٠ - ٢٢٨٠ ق . م)

لمع اسم القائد - وفي - خلال هذه الأسرة ، وكان قد جمع جيشاً ضم عشرات الألوف من كل أنحاء مصر ، وكان مبعثاً لفخره استتباب النظام بين جنوده وأن رجال الجيش كانوا جميعاً مثلاً لما يجب أن يكون عليه الجندي ، فلم يتعرض أى منهم لشخص ما في أى بلد مروا به ، ولم يغتصب أى منهم شيئاً منها قلت قيمته . وقد أتم هذا القائد ما كلفه القيام به سيده ، ففضى على ثورتين قامتتا في فلسطين ، وكان قمع الثورة الثانية من أهم أعماله ؛ إذ كون جيشين تقدم أحدهما بطريق البر عبر سيناء ، وسار هو مع الجيش الآخر بطريق البحر ، ونزل عند مكان قريب من جبال الكرمل ، وانتصر الجيشان وقعت الثورة .

الأسرة الثانية عشرة : (١٩٩١ - ١٧٧٨ ق . م)

أمنمحات الأول : (١٩٩١ - ١٩٦٢ ق . م)

فرضت عليه الظروف السياسية أن يؤمن حدود ملكه ، وكان الخطر يهددها من شرق الدلتا ، فجدد قلاعها ، وضرب بدو الصحراء الذين كانوا يغيرون على تلك الحدود وقد عُثر على قاعدة تمثال له في تلك البقاع .

سنوسرت الأول : (١٩٦٢ - ١٩٣٠ ق . م)

كانت بعثات المصريين القدماء إلى سيناء متصلة لا تكاد تنقطع إلا في فترات المحن السياسية الكبرى ، فلما كانت أيام سنوسرت الأول أخذ رجاله يترددون على مناجم سيناء وتشير إلى ذلك بعض آثاره التي عثر عليها في سراييت الخادم التي كانت بمثابة القلب في تلك البقعة ، وليس من شك في أن المصريين قد اهتموا بها اهتماماً عظيماً .

ويرجح بعض المؤرخين أنهم قد أنشأوا فيها قلعة ومكاناً للعبادة ، ولا غرابة في ذلك فرجال المناجم في مصر كانوا لا ينقطعون عن العمل في مناجم طورسيناء ، والمصريون قوم لا يحلون بأرض إلا أخذوا يفكرون في الله ينون له الدور ويعبدون فيها مظهرًا من مظاهر قوته على حسب ما نوحى إليهم طبيعة الأرض التي يسكنونها . ومعروف كذلك أن رجال البعثات في جميع العهود قد تعرضوا لخطر السطو والنهب والعدوان من جراء غارات قبائل الأعراب الذين كانوا يقيمون في تلك البقاع أو يرتادون أوديتها من وراء أنعامهم .

ومن آثار سنوسرت الأول التي وجدت في ذلك المكان تمثال ومذبح ولوح من حجر وعتب لباب ، أما سراييت الخادم فهو جبل صغير مستطيل الشكل مسطح الرأس بالقرب من ميناء أبو زنيمة ويطل من الشمال على نقب الراكنة . والسبب في تسمية هذا الجبل سراييت الخادم (في رأى بعض المؤرخين) يرجع إلى اللفظ سربوت المعروف عند أهل سيناء بالصخرة الكبيرة القائمة بنفسها وجمعها سراييت . وجميع ما في الهيكل من بناء وأنصاب مأخوذة حجارتها من الجبل قرب الهيكل والأعمدة التي على شكل تماثيل التي بالهيكل - تشبه الخدم السود البشرة ، ولهذا سمي الجبل سراييت الخادم ، ويبدو أن المصريين مارسوا الطقوس السامية في الهيكل الذي يعتبر أقدم هيكل معروف استخدمت فيه هذه الطقوس ، كما أن العمال الساميين الذين ساعدوا المصريين في التعدين كانت لهم كتابة خاصة ليست الهيرغليفية .

ولقد وجد بالمعبد تماثيل غير مصرية وأقل إتقاناً منها ؛ كما وجد البحاثة (بترى) عدة مذابح صغيرة من حجر لحرق البخور ، ووجدَ رمادا دل على أن المتعبدين في الهيكل كانوا يذبحون ويوقدون على تلك التلة . وهذه العادة قديمة عند الساميين اقتبسها اليهود منهم . ولنا نعرف على وجه اليقين متى بدأ قدماء المصريين يستخرجون الفيروز من هذا المكان ؟ فقد عثر في المعبد في أثناء تنظيفه عام ١٩٠٥ على تمثال صغير يعتقد أنه من الأسرة الثانية عشرة عندما ألهوسنفرو ، وربما اعتبروه في أيام تلك الأسرة من الآلهة الحامين لتلك المنطقة !

وعثر أيضاً على اسم الملك منوحب الثالث واسم الملك منوحب الرابع من ملوك الأسرة الحادية عشرة إلى جانب اسميها واسم كل من سنوسرت الأول واسم أبيه أمنمحات الأول . ومن الصعب أن نتصور أن مناجم سراييت الخادم قد اكتشفت في عهد سنوسرت الأول وأنها بعد فترة قصيرة أصبحت

ذات أهمية كبيرة إلى الحد الذي جعله يقيم في هذه المنطقة معبدًا كبيرًا للإلهة حتحور ، ومن المعتقد أن يكون العمل قد بدأ في هذه المنطقة قبل عهده ، وأن النعثات أخذت تزداد على مر السنين مما جعله يقرر تشييد هذا المعبد إقراراً بفضل حتحور وتسهيلاً لتعبد العمل .

ومن المرجح أنه كان هناك هيكل أو مكان ذو قداسة خاصة لعبادة الإلهة حتحور وتقديم القرابين لها في الأسرة الحادية عشرة . وقد عثر في المعبد على عتب باسم سوسرت لأول وسيل حجار معبرين باسم سوسرت الأول ، أمنمحات الثاني . وقدم أجزاء المعبد التي ما زالت باقية في مكانها وعيها سم من شادها هو لبهو ذو العمودين والذي كان قائماً في عهد أمنمحات الثالث . ويرجح أن يكون هيكل الإله سيد منحوت في صحرائه بجانب هيكل حتحور قد قطع أيضاً في الأسرة ثمانية عشرة . ولكن نقوش الحالية في هذا الهيكل ترجع إلى عهد تحتمس الثالث ، أي في عهد الأسرة ثمانية عشرة عندما أعيد تنظيمه وزخرفته ، وفي عهد المنكيين أمنمحات الثالث وأربع أقيم هيكل آخر بعيد عن هذين الهيكلين وهو هيكل اسنوك الذي أقيم لاجل الآلهة سيد وحتحور وسنفر .

وكانت هياكل الدولة الوسطى مقصورة على ثلاثة فقط . اثنان منها قد نحت الحجر الأكثر مهبة في الصحراء ، وأقيم أمامه هو سبط ، أما الثالث فقد أقيم على مسافة منهم وكان سقفه محمولاً على أعمدة ويفتح نحو لشمال . فلما جاءت الأسرة ثمانية عشرة أراد اسنوك هذه الأسرة أن يزيدوا من مديته فلم يستطيعوا الاستمرار في نفس الاتجاه . لأن حافة الوادي كانت قريبة ، فاضطروا لالتجاء إلى ما يلي هو العرب ، وكان من ملوك هذه الأسرة اهتماماً بمعد سرييت هو الملك المنحبت الأول الذي أصبح ما تهدم من مباني هيكل حتحور وهيكل سيد وخاصة في البهو المحمول على الأعمدة أمام كهف حتحور كي سيد الهيكل المعروف باسم حفية حتحور ، وهو الاسم الذي ظن أنه ينتمي إلى هذا الهيكل الذي كان معبداً لتطهير زوار المعبد .

وفي عهد تحتمس الثالث وحتشسوت أضيفت عدة قاعات أمام قدس لأقداس وهي المرقومة بأرقام س ، ت ، ث ، وأمامها صرح كبير . وعاد تحتمس الثالث فأضاف قاعتين أمام البيوت (ن . ك) كما زين جدران معبد سيد ، وفي أيامه أنه أُنحبت الثاني بدأ بتشيد قاعة أخرى أمام مباني أبيه . ولكنه مات دون أن يتمها فتمها تحتمس الرابع ، وبني بدوره حجرة أخرى ، وفي أيام الملك المنحبت الثالث بيت ست حجرات بعضها وراء بعض (أرقام ح ، ز ، ر ، هـ ، د ، ج) أقام أمامها ستين كبيرتين كانت على حابي المدخل . وشيد سيني لأول الحرتين الأماميتين ، ب ف أصبحت أولاهم ذات الأعمدة الأربعة هي أولى الحجرات الموصلة إلى داخل المعبد ، وقد عثر على اسم كل من رمسيس الثاني ورمسيس السادس مما يدل على قيامهم ببعض الإصلاحات وكان هذا آخر ملك من ملوك الأسرة الذين تركوا اسمهم في هذا المعبد . بل في منطقة سرييت على الإطلاق .

ولم تكتب أسماء الملوك الذين قاموا بتشيد أجزاء من المعبد فقط ، فقد وردت أسماء ملوك قدموا

تمائيل للمعبد . والنقوش التي وردت في هذه اللوحات أو الصب كانت تحتوى على الابتهالات المعتادة للآلهة ، وبلغ مجموع النقوش التي عثر عليها في سرايت الحادم ٣٨٧ نقشاً من الدولتين الوسطى والحديثة . وهى لا تشمل نقوش المعبد بالطبع . وإنما هى النقوش الميروغليفيه التي على اللوحات وعلى نقوش الصخور وعلى التماثيل . وأكثرها ليس فيه إلا الابتهالات وأسماء أعضاء البعثات . وفى عام ١٩٠٥ اكتشف بترى في أثناء حفره معد سرايت اثني عشر نقشاً أو قطعة أثرية عليها كتابة أيجدية حروفها تشابه هى والعلامات الميروغليفيه وقال بترى إذ ذاك : إنها من عهد تحتمس الثالث وتحشيسوت ، أى في القرن الخامس عشر قبل الميلاد واعتماداً على قرائن أثرية ظهرت في أثناء حفره للأماكن التي كانت فيها . وظلت هذه النقوش تقرأ حتى جاء عام ١٩١٧ فنشر ألس جاردنر محاولة موفقه لفك رموزها ، فكان ذلك بداية لاشتغال عشرات العلماء بها .

وزادت أهمية النقوش مع مرور الوقت فأرسلت البعثات كان أولها عام ١٩٢٧ ثم بعثة في عام ١٩٢٩ وبعثة غير الأولى للجامعة هارفارد عام ١٩٣٠ وأصبح مجموع النقوش السينائية المؤكدة خمسة وعشرين نقشاً . وفي يناير ١٩٤٨ ذهب أولبريت إلى سيناء مع البعثة الأفريقية للجامعة كاليفورنيا كمستشار أثرى لها ، وكان قد نشر بحثاً عن النقوش السينائية عام ١٩٣٥ ، فانتهاز فرصة وجوده في سيناء . فراجع جميع النقوش على أصولها ، وتوصل إلى حل ما لم يكن قد استطاعه من قبل . وخرج يبحث في أقوال من سبقوه ، ووجد أن تاريخ بترى وهو القرن الخامس عشر قبل الميلاد أقرب إلى الصحة من تاريخ جاردنر . وقارن بين الأيجدية السينائية والسامية الشمالية والجنوبية ، ولخص أولبريت نتيجة بحثه فقال : إنه يعتقد أن الكتابة البروتو سينائية ليست إلا أيجدية كنعانية دارجة أما عمال المناجم الذين كتبوها فيمكن أن يقال : إنهم يمثلون طبقة من السكان الساميين الذين كانوا يعيشون في شمال شرق الدلتا قبل خروج بني إسرائيل من مصر بقرن ونصف القرن أو قرنين من الزمان .

ويحسن بنا أن نفق قليلاً نساءل : من هؤلاء الساميون الذين استطاعوا الوصول إليها ومدى صلة مصر بهم ؟ يعتقد أولبريت أنهم كانوا ساميين من الشمال الغربى ، أو بعبارة أدق من ذلك الفرع السامى الذى كان يسكن في سورية على مقربة من الشاطئ ، وأهم أتوا إلى مصر كأسرى حرب أو كانوا عبيداً فيها ومن نقوش سرايت الحادم والمغارة يتبين أنه كان هناك آسيويون من بلاد «رتنو» التي كانت تشمل جزءاً من شمالي فلسطين ولبنان وجنوب سورية الحالية يعملون مع البعثات المصرية في المناجم في سرايت والمغارة ، وأنهم كانوا كثيرين بصفة خاصة في عهد أمنمحات الثالث إلى جانب البدو المحليين من أهل سيناء الذين كانوا يطلقون عليهم اسم «عامو» ، وهى الكلمة العامة لبدو الصحراء المتاخمة للدلتا . وكان بعضهم مستقراً في شرق الدلتا .

أمنمحات الثاني : (١٩٣٠ - ١٨٩٥ ق . م)

اهتم بكوز سيناء ، فوجه إليها بعثتين لاستخراج المعادن والحجر الكريم ، وقد ذهبت أولاهما في السنة الرابعة من أيام حكمه ، ووجدت أخبار تلك البعثة على لوح عثر به في تلك البقاع . وذهبت الأخرى في عامه الرابع والعشرين وقد وجدت أخبارها على صخرة في سرايت الخادم ، وتشير تلك الأخبار إلى أن رجال البعثة قد فتحوا منجماً جديداً ، كذلك عثر لهذا الفرعون هناك على آثار من تماثيل وألواح .

سنوسرت الثالث : (١٩٧٩ - ١٨٤١ ق . م)

في تاريخه ما يشير إلى أن رجاله قد وصلوا إلى شبه جزيرة سيناء لاستغلال مناجمها ، فقد عثر له ببعض آثار في سرايت الخادم ومن ذلك لوح وتمثال .

أمنمحات الثالث : (١٨٤١ - ١٧٩٢ ق . م)

أرسل عماله إلى سيناء في السنوات الثانية والرابعة والخامسة والسادسة والثامنة والحادية عشرة والثالثة عشرة والخامسة عشرة والثامنة عشرة والعشرين والثالثة والعشرين والخامسة والعشرين والحادية والثلاثين والثامنة والثلاثين والأربعين والحادية والأربعين والثانية والأربعين والثالثة والأربعين والرابعة والأربعين والخامسة والأربعين من سنى حكمه أى أنه وجه إلى تلك البقاع أكثر من عشرين بعثة لاستغلال كنوزها الغنية ، وما نعرف أن تلك الكنوز قد استغلت في عهد واحد من فراعنة مصر ، كما استغلت في أيام ذلك الفرعون . والظاهر أن الوصول إلى تلك البقاع لم يكن سهلاً في كل مواسم العام ، فقد كانت شدة الحر تضايق العمال وتضنيهم . ولقد أنشأ منازل للعمال في بعض مناطق التعدين كسرايت الخادم بطور سيناء .

أمنمحات الرابع : (١٧٩٢ - ١٧٨٢ ق . م)

امتد نشاطه الاقتصادي والعمراني إلى شبه جزيرة سيناء وقد ظهرت آثار ذلك في مناجم سيناء حيث عثر له على عدة نقوش سجلها رجال عهده ممن ارتادوا بقاع شبه الجزيرة ، ثم ألواح نصبها عماله في تلك البقعة التي ارتادوها لاستخلاص النحاس والفيروز .

الهكسوس : (١٦٧٥ - ١٥٦٧ ق . م)

كان احتلال الهكسوس لمصر أول ما تعرضت له من ذلة على يد أجنبي ، ولقد كان انتقام المصريين

منهم على قدر ما أحسوه من مرارة ظلت في نفوسهم لم يقض عليها الزمن . وقد دخل الهكسوس إلى مصر من سيناء قادمين من آسيا خلال حكم الأسرة الثالثة عشرة وبدءوا يستقرون في شرق الدلتا منذ أواسط أيام هذه الأسرة ، ونجح آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة سقنرع وكامس وأول ملوك الأسرة ١٨ أحمس في طرد الهكسوس من مصر .

الأسرة الثامنة عشرة : (١٥٧٠ - ١٣٠٤ ق . م)

أدرك ملك (خيتا) في عهد الفرعون أمنحوتب الثالث أنه لن يستطيع تحقيق أطماعه في آسيا ما دام النفوذ المصري قوياً فأخذ يؤلب بعض الأفراد الآسيويين ليشقوا عصا الطاعة على مصر ، وأخذت المدن تستغيث بفرعون مصر ، وأخذوا يرسلون له الرسائل والرسول ، وكانت آخر رسالة منهم تقول (والآن فإن مدينتك تونييب تبكي ودموعها تسيل ولا ناصر لنا لقد أرسلنا عشرين رسالة إلى مولانا ملك مصر ولم نلق رداً منه) كما كشفت هذه الرسائل عن وجود خطر آخر يتمثل في وجود قبائل سامية تسمى قبائل الخابيرو وفي بعض الآراء أن هذه القبائل أطلق عليها فيما بعد (العبرانيين) وكانوا قبائل من البدو المقيمين في شرق الأردن يؤجرون أنفسهم للقتال ، واستعان بهم بعض الأمراء للاستيلاء على حصن (مجدو) الذي سبق أن فتحه تحوتمس الثالث .

ثم أخذوا يهددون أورشليم ، فسقطت بدورها ، وهكذا أصيب النفوذ المصري بضربات قاصمة في سوريا وفي مدن الساحل الفينيقي وفي أعلى الفرات وفي فلسطين ، وبعد أن انتهت أيام أخناتون تولى توت عنخ آمون ، تيسر للقائد (حورمحب) أن يقوم ببعض الجهود لاستعادة بعض ما فقدته مصر . وقد أصدر (حورمحب) عدة تشريعات بعد أن عقد معاهدة بينه وبين (مورسيل) الثالث ملك خيتا ضمنت له استقرار الأمور على الحدود ، وكان التشريع الأول خاصاً بالعقوبات التي توقع على كل من يعوق السفن التي تحمل الضرائب إلى خزائن الدولة ؛ وكان عقاب ذلك جلع الأنف والنفي إلى حصن ثارو على مقربة من القنطرة .

حتشبسوت : (١٤٩٠ - ١٤٦٩ ق . م)

اتصلت حتشبسوت بشبه جزيرة سيناء خلال نشاطها لإصلاح ما خربه الهكسوس في أثناء زحفهم على أقاليم مصر ، ومن آثار نشاطها إعادة فتح المناجم في سراييت الخادم ، وقد عثر هناك على بعض الفخار الملون الذي يحمل اسمها واسم تحوتمس الثالث .

تحوتمس الثالث : (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق . م)

نقرأ في أخبار حملة تحوتمس الأولى وكانت في العام الثاني والعشرين من حكمه أي في العام الأول

من انفراده بالحكم أنه عادر حصن ثارو (على مقربة من نقضرة) في طريقه إلى فلسطين ، فوصل إلى غزة بعد ٩ أيام وهذا يعتبر سيرا سريعا لجيش يقطع الصحراء ثم تكن لديه وسائل النقل ميكانيكية إذ أن المسافة تريد على ٢٨٠ كم .

أمنحوتب الثاني : (١٤٣٦ - ١٤١١ ق . م)

وجه أمنحوتب الثاني حملتين إلى آسيا فاحترقا سياء لتأديب ممكة (ميتاني) وكانت الحملة الثانية في السنة التاسعة حكمه ، وكانت تمثيلية أكثر منها حرية لأن الثورة التي قيل عنها لم تقم في فلسطين لم تكن سوى فتنة محلية صغيرة في إحدى المدن ، وأحار هاتين الحملتين في موحيتين شهيرتين إحداهما في الكرنك والأخرى عنر عليها في (مف) عام ١٩٤١

أمنوفيس الثالث : (١٤٠٥ - ١٣٧٠ ق . م)

تعدت آثاره حدود وادي النيل ، فبغت طور سياء ، وعثر له هناك على لوحين من حجر يورخ أحدهما عامه الثالث وثلاثين ، ويشير إلى أنه بعث إلى سياء حملة تحت إمرة واحد من أبور رحاله لاستخراج الفيروز من مناجمها . كما وجدت له هناك آثار من مشآت وفخر ميون .

الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٤ - ١١٩٥ ق . م)

رمسيس الأول . (١٣٠٤ - ١٣٠٣ ق . م)

عندما انخرط في سلك عسكرية متأثراً بحياة أبيه سيتي وسيرته لم يلبث حتى وصل إلى منصب قائد لفيلق الرماة ، وأصبح حارساً لحدود مصر الشرقية وجعل مقدمه في قبة ثارو (النقضرة) .

سيتي الأول : (١٣٠٣ - ١٢٩٠ ق . م)

قضى هذا الملك سنوات شديدة وهو يعمل ضابطاً في الجيش وحاصه في حصن - ثارو - على حدود مصر الشرقية . وفي أول أيام حكمه فوحى بقاء ثورة وراء هذه الحدود وأسرع لإخمدها ، كان العراقيون يسعون للسيطرة على فلسطين واستخلاصها من كيد الإمبراطورية . فأخذوا يذيعون لفتنة بين قبائل البدو لثورة على فرعون ، وقد ترك لنا سيتي الأول أخبار تلك الحملة وتصارته على جدران معبد الكرنك ، ومنها نعرف أنه عندما علم بخبر تجمع القبائل البدوية تحت قيادة زعمهم وعينهم في الأرض فساداً عد ذلك خروجاً منهم على قوانين النصر وسره أن يخرج إليهم للقضاء على ثورتهم . كما رسم لنا فيها الحصون التي أعادها إلى حضيرة الطاعة بعد أن هزم بدو سياء وجنوى فلسطين (الشسو) وهي

حصوص التي كانت تمتد من القنطرة حتى رفح .
 وكان هذا الطريق (طريق حورس) أو (طريق الحرى الكبير) أقدم طريق حرى عرفه العالم ،
 ولم تقتصر أخبار الخدمة وتصوير مراحلها في كرنك على القول والحكاية ، بل صورها ورسم مراحلها
 كم صور بعض الحصون التي حدها ، واتخذها معافل تمويل الجيش ومركزاً لمواصله زحفه ، وتحركت
 جيوش الفرعون تحت إمرته من قلاع تارومنتحة إلى أرض كعب . فقيت في طريقها قبائل البدو الذين
 كانوا يحركون اثورة بين مصر وبلاد الشرق ، فقصى عليهم وكان هذا أمراً ضرورياً لحماية ظهر الجيش
 المصرى في أثناء رحله إلى ديار الكنعانيين وما وراءه من بقية أقاليم فلسطين ، وقد أراد سبتي الأول
 بذلك أن يعيد لمصر مذهبها القديم ، فقدم مع جيشه إلى فلسطين ، وعلم أن السكان الذين شقوا عصا
 الطاعة مؤازرة وتخريض ممكة (حيث) تجمعوا في بيسان ، وأن بعض منهم تجمع في بلد يسمى حمة (غير
 مدينة حمة السورية) . وبعض تائه في بدة (يعمر) ، فأرسل إلى كل من هؤلاء فرقة من فرق جيشه ،
 فصت عليهم بسهولة قبل أن يتجمعوا في مكان واحد ، ودنت له فلسطين وفينيقياء والجزء الجوى من
 سوريا وبخاصة البقاع ومدينة قادش . *

طريق سبتي الأول

غمر بدو لصحراء سوريا وفلسطين ، وكان المصريون يطلقون عليهم اسم (الشاسو) ، وهو اسم عام
 نعت به المصريون عرب آسيا جميعاً ، ولم يكن لهم جيوش منظمة ليستطيعوا أن يعيشوا بها غارتهم ،
 ولم يكن لهم كذلك من سلاح الحرب ما يمكنهم من ملاقة الحيوش المنظمة ، ولم يتح لهم مطلقاً أن
 يعثوا جيوشاً يبقون بها العدو في تلك الصحراء الواسعة وما كانوا قادرين على تعبيد الطرق التي تسلكها
 الجيوش في مجاهل الصحراء ، ولعنهم لم يروا مثل هذه الطرق إلا بعد أن سلكتها جيوش مصر تحت
 إمرة بطل استقلالها (أحمس الأول) وهو يضارد بها الهكسوس . ولا بعد أن عبر (سبتي الأول) ذلك
 الطريق الحرى العظيم لذى يبدأ من (سيلة) (ثرو) عند القنطرة (بين بحيرى البلخ والمتزة) ماراً
 بالعرش ثم رفح إلى غزة . وسوف نرى كيف أن سبتي قد أعد هذا الطريق ونظمه ثم جهزه بآبار
 لأجل الجيش بحيث تستطيع الجيوش المصرية وقوافل السلم أن تعبر الصحراء من مصر إلى فلسطين في
 سهولة ويسر وقد صورت أخبار حملة سبتي الأول على جدران معبد الكرنك مواقف الفرعون عند
 الحصون والمعقل وآبار الماء التي نثرها من نظموها له الطريق إلى لشرق استعداداً لرحله ، ولست أعتقد
 أنه مشتبهاً جميعها ، وإنما الأرجح أن أكثرها كان موجوداً منذ أيام أسلافه الذين ركبوها من قبله ذلك
 الطريق في قلب تلك الصحراء الجرداء التي من الشاه من شبه جزيرة سيناء . وقد أعاد سبتي الأول
 تعبيد هذا الطريق وجدد حصونه بعد أن تهدم أكثرها وفتح آباراً بعد أن عطلت في فترة الركود الحرى

والسياسى والاقتصادى الذى أصاب مصر فى أعقاب ثورة الانقلاب الدينى الذى وقع فى أيام (أخناتون) .

والواقع أن ذلك الطريق بين مصر وفلسطين يرجع إلى عهد بعيد إلى أيام الدولة الوسطى ، فقد جاء ذكره فى قصة (سنوحى) المعروفة وهو بعينه ذلك الطريق الذى كان يركبه الغزاة ممن هجموا على مصر أيام محنتها السياسية وركبه الهكسوس عندما غزوا مصر ، وركبوه مرة أخرى عند خروجهم منها وركب فى إثرهم (أحمس الأول) بجيوشه الظافرة التى حررت مصر من نير الهكسوس . وركبه خلفاؤه من الأبطال الذين بنوا مجد مصر الحرى والسياسى ، وترعموا تلك الحركة السياسية المباركة حركة بناء الكتلة الشرقية فى حوض البحر الأبيض الجوى ، ورأس الطريق عند قلعة (ثارو) التى عرفت أيام الرومان (باسم سيلة) وهى مجموعة من حصون كانت قد أقيمت منذ زمان بعيد لصد إغارات البدو عند حدود مصر الشرقية . وتعد قلعة (ثارو) هذه من أقوى الحصون وأمنعها . وموقعها على قناة كانت تدعى القاصلة لأنها تفصل بين مصر والصحراء وهى قناة مصرية كانت تستمد ماءها من النيل ويتشرب على ضفتيها العشب وتسبح فى الأخوار المنتشرة من حولها التماسيح .

والشئ الذى يسترعى النظر حقا هو أن بناء القلعة من الناحية التى تواجه مصر يتكون من سور مستطيل تكتنفه من الشمال والجنوب أبنية مختلفة ، وله من هذه الناحية بابان يفتح أحدهما إلى الشرق ويؤدى إلى قطرة فوق القناة . وتلك المظقة ما زالت حتى يومنا هذا تحمل اسم القطرة التى غادرها سبتى ليصل بعدها إلى حصن مستطيل البناء يدعى عربن الأسد ، ولاشك فى أن المقصود بالأسد فى هذه التسمية هو فرعون . وأن ذلك الحصن هو الذى عرف فى زمان رمسيس الثانى باسم (معقل سيس) (معقل رمسيس الثانى) . ثم بلى ذلك الحصن حصن آخر يقال له (حصن سبتى) ويزعم العالم البريطانى (جاردنر) أن موضع الحصن فى المكان المعروف اليوم باسم (تل الحر) ، وبلى ذلك محط آخرسمى فى زمان رمسيس الثانى (سيس) أى أن رمسيس الثانى قد حلق اسمه على ذلك الحصن بعد وفاة أبيه ، ويزعم العالم البريطانى المذكور أن موضع ذلك الحصن كان عند (القاطية) الحالية . والواقع أن أوفى دراسة لتاريخ ذلك الطريق الحرى بما كان يتصل به من حصون وقلاع وآبار هو ما كتبه العالم المذكور تحت عنوان (The Military Road Between Egypt and Palistien J E A Vol VI) (11) 99 PP 1920 c . وبلغ طول الطريق نحواً من مائة وعشرين ميلاً من القنطرة إلى رفح ، وهو طريق كان يركبه محاربون من آل فرعون فى عصور مختلفة . ثم ركبه الاستثمار الأوروبى فى العصر الحديث لغزو فلسطين وما جاورها من أقطار الشرق بين عامين ١٩١٤ ، ١٩١٨ .

ولا يملك المؤرخ من أبناء هذا الوادى إلا أن يصخر بمقبرة فرعون ممن أنشئوا ذلك الطريق وركبو فحاربوا وظفروا وعمروا ثم أنشئوا تلك الكتلة العظيمة فى حوض البحر . ثم جعلوها تتحدى كل قوة حربية وسياسية فى ديارهم الزاخرة . ولا يسع لمرء من أبناء هذا الوطن إلا أن يضيق العنن لحياهه نيرى

جيش مصر وهو يغادر الحدود ليركب هذا الطريق إلى فلسطين فيضرب الثائرين من زعمائها ويرى أمراء ذلك الجيش وقواده يهتفون لذلك الزميل القديم الذى عاشهم جندياً بالأمس ، ثم جاءهم اليوم ملكاً يقودهم إلى ميدان النصر ليحققوا هنالك زعامة مصر الحرية والسياسية والاقتصادية فى ذلك العالم المعروف فى الشرق القريب . ولقد كانت (ثارو) فى أيام (حورمحب) أشبه شئ بمعاقل الطوربنى إليها المجرمون وموقعها الآن فى المكان المعروف باسم (تل أبى صيفة) عند القنطرة .

رمسيس الثانى : (١٢٩٠ - ١٢٢٣ ق . م)

واجه رمسيس الثانى فى السنة الرابعة من حكمه تمرد مملكة (خيتا) وتحريضها بعض الأمراء على الثورة والعصيان . فقاد حملة إلى آسيا لتوطيد النفوذ والاطمئنان على حاميات الموانى وخطوط المواصلات . ومرة ثانية فى السنة الخامسة من حكمه عبأ جيوشه وسار بها لسحق جيوش خيتا التى ألبت الكثير من سكان سوريا ضد مصر ، وتجمعت فى قادش لصدها الجيوش المصرية التى كانت فى طريقها إلى هناك . ولم يترك (موتلى) ملك (خيتا) فى ذلك الوقت أى وسيلة من الوسائل إلا اتخذها لجعل من مقابلته لجيش مصر ضربة قاضية لنفوذ مصر وسيادتها فى آسيا . وسارت جيوش رمسيس فى الطريق الحرنى القديم عبر سيناء ووصل بها إلى وادى نهر العاصى .

ولم يمض عامان على معركة قادش حتى كانت فلسطين قد ثارت بأسرها ، وامتدت الثورة حتى وصلت إلى حدود مصر وسارع رمسيس الثانى إلى إخماد الفتنة ، وأعاد كل فلسطين إلى حظيرته وبعض بلاد الأمويين ، وكانت هذه الحملة حملة العام الثامن من حكمه سبباً فى ذبوع اسمه كأحد القراعنة المحاربين الذين حافظوا على الإمبراطورية التى ورثها عن تحتمس الثالث .

منفتاح : (١٢٢٣ - ١٢١١ ق . م)

خرج اليهود من مصر فى عهد منفتاح ابن رمسيس الكبير وفى سيناء خالفوا أصحابهم ونبههم موسى وعبدوا عجلًا من ذهب . وطلبوا العودة إلى مصر للتمتع بخيرها والعكوف على أصنامهم التى ألفوا عبادتها . ومن الثابت فى تاريخ مصر - بناء على ما جاء فى كتب السماء من ناحية وما شهدت به آثار القراعنة من ناحية أخرى أن العبرانيين قد عرفوا مصر منذ أيام الدولة الوسطى على الأقل وكانوا يجيئونها أول الأمر لاجئين يطلبون الرزق فى أرضها ثم يجيئونها أسرى فى ركاب فرعون كلما عاد من حروبه فى أقاليم الشرق ظافراً منصوراً .

الأسرة العشرون (١١٩٥ - ١٠٩٠ ق . م)

ست تحت - (١١٩٥ - ١١٩٢ ق . م)

وجد اسم هذا الملك مسجلاً على صخور سياء ، ومن المحتمل أن يكون قد زار تلك المنطقة في أثناء مطاردته الآسيويين الذين كانوا يملأون تلك البلاد في ذلك العهد .

رمسيس الثالث : (١١٩٢ - ١١٦٠ ق . م)

في العام الثامن من حكمه احتلت لشعوب الهندو أوروبية (شعوب البحر) بلاد خيتا وبلاد قدي (بن آسيا الصغرى وشمال سوريا) واحتلت كلكتيا وقبرص . واستولت على مدينة قرقيش على الفرات ، ولم يهمل رمسيس الثالث في دفع هذا الخطر فاستعد له وجمع أسطولاً كبيراً كما جمع جيشاً كبيراً وسار لملاقاة عدائه الذين كانوا في طريقهم إلى مصر من ناحية الشرق ونجح المصريون بعد صراع ممت في القضاء على أسطول هذه الشعوب ، كما نجحوا أيضاً في تمريق الجيش لبرى الكبير . وهم إلقاء مصر من خطر مؤكد لم يكن يقل عن الخطر الذي تعرضت له عند غزو هكسوس إن لم يزد عليه ولم تقذ مصر نفسها فقط بل انقذت غربي آسيا معها إذ أن طول الأساطيل المعادية لم تقم لها بعد ذلك قائمة . ولم يصح لمن بقى حياً من جيوشهم أى كيان تاريخي . وتذكر المصادر التاريخية أنه قد جملة آسيوية أخرى احترقت جيوشه فيها سياء ، ووصل حدود مصر إلى لفرات وهو حد كانت مصر قد فقدته منذ عهد طوليل . وفي ميدان شعين جهر حملة بعث بها عن طريق البحر والبر إلى مملكة النحاس في شبه جزيرة سياء . فعاد رجاله وحدوا من نحاس حملوه يومئذ إلى ضيعة على ظهور الفئك ولما عرض تحت يوفد القصر وشروته أخذ يتلأأ ويسعت منه بريق يشبه بريق الذهب فيثير إعجاب الناظرين .

من الأسرة المماتية والاعتريين إلى الحادية والثلاثين (٥٢٥ - ٣٣٢ ق . م)

الفرس (٥٢٥ - ٤١٥ ق . م)

حدث تدمير جيوش كبير في مصر هزم على مصر هزم في طريقه ، وكانت أول معركة تقابل فيها جيش فرس - جيش مصر منذ يومئذ (قبل الفرس) . وبالرغم من استسار المصريين وحسن دفاعهم تمت هزيمة جيوش فرس في معركة (ميدا) زمتهم في مصر ، ثم هزم جيش فرس في معركة (مصر) في سنة (٤١٠ ق . م) . ثم هزم مصر مرة أخرى في معركة (مصر) في سنة (٤٠٤ ق . م) . ثم هزم مصر مرة أخرى في معركة (مصر) في سنة (٣٦٥ ق . م) .

البلاد . وأسس الأسرة الثامنة والعشرين وكان ملكها الوحيد وبعدها حاول الملك الفارسي (أرتاكسر كسيس الثالث) الملقب (أوخوس) استرداد مصر عام ٣٥١ ق.م ، ولكنه باء بالفشل ، وفي المرة الثانية جمع جيشاً يزيد عدده على ٣٠٠,٠٠٠ وأسطولاً من ٣٠٠ سفينة ضخمة وهجموا على مصر من البر والبحر ، فنجح في احتلال (منف) وفي عام ٣٤١ ق.م نجحت الحملة الفارسية الجديدة في إتمام فتح مصر . ومرة أخرى تجددت الثورات في مصر التي لم تحنْ هامتها بقيادة أحد أمراء الدلتا ويسمى (خباشا) ولم يدم احتلال الفرص الثاني لمصر أكثر من ثمانية أعوام وكان نجم الإسكندر قد أخذ يظهر في ذلك الوقت وشقت جيوشه طريقها إلى مصر .

خروج بني إسرائيل من مصر :

عندما عاد موسى إلى مصر طلب من فرعون أن يأذن في خروج بني إسرائيل من أرضه فأبى ، وفي عام ١٤٩١ ق.م خرجوا بليل وساروا من مدينة رعمسيس إلى سكوت فايثام فقم الحيروث (على البحر الأحمر) ، وعندما حاول الفرعون أن يمنعهم لم يستطع ، ومن أهم الآراء التي تحدثت في هذا الموضوع الرأي الذي يرى أنهم خرجوا في عهد الأسرة التاسعة عشرة (مفتاح ابن رمسيس الثاني) وأن مدينة رعمسيس التي خرجوا منها هي الخرائب المعروفة بتل المسخوطة في مديرية الشرقية ، وأنهم عبروا البحر الأحمر بالقرب من السويس ، وبعد أن نجح الإسرائيليون في الوصول إلى سيناء ساروا ثلاثة أيام حتى وصلوا إلى عين ماء كانت مرة وكان أول تذمر للإسرائيليين .

وفي الشهر الثالث من خروجهم أنزل الله على موسى الوصايا العشر المدرجة في سفر الخروج ، ثم أنزل عليه الشرائع .

وفي اليوم الأول من الشهر الأول من السنة الثانية لخروج بني إسرائيل من مصر (١٤٩٠) ق.م أقام خيمة الشهادة ، وبعد أن أقام موسى في الجبل الذي تلقى فيه الوصايا ستة إلا بضعة أيام خرج بقومه قاصداً أرض الميعاد . وقبل أن يعبر نهر الأردن أرسل رجلاً من كل سبط من أسباط إسرائيل ، الاثني عشر وفيهم يوشع بن نون من سبط أفرايم وكالبُ بنُ يَفنة من سبط يهوذا للتجسس على الأرض ، فعادوا إلى قومهم وقالوا (حقاً إن الأرض تُفيض لبنا وعسلاً غير أن الشعب الساكن في الأرض معتر والمدن حصينة عظيمة يسكنها العالقة في الجنوب والحيثيون واليبوسيون والأموريون في الجبل ، والكنعانيون على البحر وجانب الأردن وليس لنا طاقة على حربهم) .

أما يوشع وكالب فقالا : لا ، بل في طاقتنا حربهم ، ولكن بني إسرائيل جنبوا عن التقدم مع قول الأكثرية ، وبدأ عصر التيه الذي استمر أربعين عاماً .

وفي نهاية الأربعين عاماً استطاع الإسرائيليون الاستيلاء على المناطق التي شرق نهر الأردن ، وصعد

موسى إلى جبل «نبو» ورأى منه أرض الميعاد . وهناك مات ودفن وكان ذلك فى عام ١٤٥١ ق . م .
وخلف يوشع بن نون موسى فى قيادة الإسرائيليين . فعبر بقومه نهر الأردن إلى أرض كنعان وفتحها
عام ١٤٥٠ ق . م .

مملكة النبط وسيناء :

حل النبط محل الأدوميين ، وأسسوا مملكة فى البتراء امتدت من دمشق الشام شمالاً إلى وادى القرى
قرب المدينة جنوباً ، ومن بادية الشام شرقاً إلى خليج السويس غرباً فشملت شمال غربى جزيرة العرب
وجزيرة سيناء .

واستخدم النبطيون طرق التجارة فى سيناء ، وعدنوا الفيروز فى وادى المغارة والنحاس فى وادى
النصب . وكانوا يزورون الأماكن المقدسة فى جبل موسى وسريال ؛ كما سكن رهبان من البتراء دير
سيناء فى صدر العصر المسيحى ، وكانت أبرشية فيران قبل بناء الدير تابعة لأبرشية البتراء ، وأول من
ذكر النبط فى التاريخ كان ديودورس الصقلى ، وقد كتب عنهم عندما تحدث عن إغارة أنتيجونس
سيد آسيا الصغرى على البتراء عام ٣١٢ ق . م وارتداده عنها بالفشل يقول : (إن النبطيين خلفوا
الأدوميين فى بلادهم . وأنهم عشرة آلاف مقاتل لا شبيه لهم فى قبائل البدو وإن بلادهم الوعر القاحل
ساعدهم على التمتع بالحرية والاستقلال) .

وعندما التزم النبطيون بالحياة فى الصراع الدائر بين أنتيجونس وبطليموس الأول محافظة على
تجاريتهم مع كل من مصر وسوريا استاء أنتيجونس ونوى إذلالهم ، فدخل مدينتهم عنوة ، وامتلكها .
بعدما عاد النبطيون وتأروا من جنود أنتيجونس ، وعندما حاول مرة أخرى عجز جيشه عن دخول
مدينتهم . واستفحل أمر النبط بعد هذا النصر واتسع سلطانهم ولا سيما فى أثناء انحطاط مملكة البطالمة
فى مصر والسلوقيين فى سوريا فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد وأنشأوا دولة منظمة حكمها الملوك .
وفقاً للجدول التالى :

الحارث الأول	١٦٩ ق . م
زيد ابل	١٤٦ ق . م
الحارث الثانى الملقب إيروتيمس	١١٠ - ٩٦ ق . م
عبادة الأول	٩٠ ق . م
ريبان الأول	٨٧ ق . م
الحارث الثالث الملقب فياهلن	٨٧ - ٦٢ ق . م
عبادة الثانى	٦٢ - ٤٧ ق . م
مالك الأول	٤٧ - ٣٠ ق . م

٣٠ - ٩ ق . م

عبادة الثالث

٩ ق . م - ٤٠ م

الحارث الرابع الملقب فيلومتر

٤٠ - ٧٥ م

مالك الثاني

٧٥ - ١٠١ م

ريال الثاني الملقب سوتر

١٠١ - ١٠٦ م

مالك الثالث

وكان هذا آخر ملوك النبط ؛ فإن الرومان بعد استيلائهم على سوريا ومصر استمروا في محاولة إدخال هذه البقعة من الأرض تحت سلطانهم حتى نجحوا في عام ١٠٦ م في عهد الإمبراطور تراجان ، وأصبحت البتراء ولاية رومانية ، ولم يبق للأنباط بعدها قائمة .

وقد اختلف المؤرخون في أصل النبط ، فقال فريق : إنهم آراميون ؛ وقال فريق آخر : إنهم عرب : أما القائلون بأنهم آراميون فحجتهم أن لغة النبط آرامية ؛ أما القائلون بأنهم عرب فحجتهم أن مؤرخي اليونان واليهود الذين كتبوا عنهم سموهم عرباً كما أن النبط اختاروا أسماء للوكنهم كلها عربية محضة كالحارث وعبادة وريال ومالك وجميلة ، ويؤخذ من تاريخ مصر للمؤرخ الإنجليزي شارب أن النبطيين هم الأدوميون أنفسهم . فقد كانوا يسمون أدوميين ، ثم فقدوا هذا الاسم بعد أن استولى اليهود على أدوميا فسموا أدومي الصحراء نباووث أو النبط .

سيناء في العصر البطلمي (اليوناني)

خلال العصر اليوناني (البطلمي) في مصر كما في كل عصورها شهدت سيناء حركة مستمرة للجيش سواء في طريقها لغزو مصر أو خارجة من مصر لحروب في سوريا وفلسطين أو لجيوش عائدة منتصرة أو منسحبة من معاركها فوق هذه الأرض التي كانت مصر في عصر البطلمة ترى أنها درعها لمواجهة محاولات الغزو الخارجية والتي تحقق لها الأمن .

وصل الإسكندر بلوز يوم (الفرما) في خريف عام ٣٣٢ ق . م ، ومنها اتجه جنوباً على امتداد النهر النيل إلى الليل حتى وصل إلى ممفيس ، وهناك تسلم البلاد من مازاكس الوالي الفارسي على مصر . واستقبله المصريون بالترحاب استقبال البطل المنقذ لهم من الحكم الفارسي الغاشم وخاصة أن المصريين كانوا قد ألقوا الإغريق كأصدقاء . وكثيراً ما ناصرهم في ثورتهم ضد الفرس .

وكان الإسكندر بعد أن استولى على آسيا الصغرى وانتصاره في معركة إيسوس ٣٣٣ ق . م لم يحاول تتبع الملك الفارسي المهزوم شرقاً تجاه عاصمته صوصة ؛ وإنما انحدر جنوباً ليستولى على سوريا وفلسطين بعد معارك عنيفة عند صور وغزة ، ويرجع المؤرخون أن اتجاه الإسكندر الغربي في عدم تتبعه الملك الفارسي المهزوم والقضاء عليه نهائياً إلى عبقرية العسكرية في أنه أراد محاصرة الأسطول الفارسي القوي عن طريق الاستيلاء على جميع السواحل في شرق البحر الأبيض المتوسط التي يمكنه أن يلجأ إليها .

ويرى بعض آخر من المؤرخين أن شهرة مصر كمصدر هام للغلال لها دخل كبير في توجيه خطة الإسكندر إلى هذا الاتجاه ، إذ يمكنه استخدامها كقاعدة لتكوين المدن اليونانية من ناحية ، وتموين جيوشه الغازية المتجهة شرقاً من ناحية أخرى .

وبعد وفاة الإسكندر المفاجئة عام ٣٢٣ ق . م في بابل وتقسيم الإمبراطورية الواسعة التي تركها بين القادة كانت مصر من نصيب بطليموس الأول (سوتر) .

بطليموس الأول (سوتر) ٣٢٣ - ٢٨٤ ق. م

عرف بطليموس حقيقة الصراع الدائر بين القادة ورثة الإسكندر وحقيقة موقفه ، وحدد هدفه بتأمين سلطانه في مصر .

ومن أجل تحقيق هذا الهدف رأى أنه من الأصلح أن يخضع لسلطانه بعض المناطق المجاورة على الحدود الشرقية والغربية لمنع أويلحد من احتمالات غزو مصر فجأة عن طريق البر ، وأن يمد مناطق نفوذه إلى بحر إيجه ، وخاصة الجزر لتكون بمثابة نقط أمامية تسهل له السيطرة على البحر . وبقيت هذه الأسس التي وضعها بطليموس الأول للسياسة الخارجية كما هي في عصر خلفائه .

حملة برديكاس : ٣٢١ ق. م

قاد برديكاس أحد القادة المناوئين لبطليموس حملة إلى مصر لتأديبه ، لأنه حالف القادة الثلاثة أنتياتروس (حاكم مقدونيا واليونان) وأنتيجونس (حاكم فريجيا الكبرى في آسيا الصغرى) ولوسياخس (حاكم طراقيا) ضده .

ويفشل برديكاس في مصر ، ويعجز عن عبور النيل ، ويتآمر عليه ضباطه ويقتلونه عام ٣٢١ ق م وتفشل الحملة بأسرها .

حملة بطليموس الأول : ٣١٩ ق. م

قاد بطليموس الأول هذه الحملة للاستيلاء على سوريا الجنوبية ليطرد منها يومينيس قائد برديكاس .

ويعتقد الموقف نتيجة خلافات بين القادة اليونانيين على إعادة اقتسام الإمبراطورية الفارسية ، ويتكون تحالف جديد من بطليموس ولوسياخس وكاساندروس ضد أنتيجونس الذي نجح في هزيمة يومينيس والاستيلاء على الإمبراطورية الفارسية ما عدا مصر . وتنشب الحرب بين الطرفين وتستمر من ٣١٥ ق. م حتى ٣٠١ ق. م وينجح أنتيجونس في غزو سوريا ويرد بطليموس إلى داخل الحدود وراء غزة .

ويعاود بطليموس الأول بعد الاستيلاء على قبرص ، فيشن هجوماً جديداً على سوريا الجنوبية ، وينتصر على ديمتريوس بن أنتيجونس والى سوريا انتصاراً ساحقاً في موقعة غزة ٣١٢ ق. م ويتابع بطليموس تقدمه ليستولى على فلسطين وفينيقيا .

ويعود ديمتريوس لينتصر على جيوش بطليموس في شمالى سوريا عام ٣١١ ق. م ومرة أخرى ينسحب بطليموس من فلسطين ويعود الموقف في العالم اليوناني للتشابك بعد اتفاق للقادة على إعادة

تقسيم تركة الإسكندر الأكبر .

ويقرر أنتيجونس الذى أعلن نفسه ملكاً عام ٣٠٦ ق.م عقب هزيمة أسطول بطليموس فى سلاميس محاولة إخضاع منافسيه الذين أعلنوا أنفسهم ملوكاً هم أيضاً رداً على هذه الخطوة ، فيجهز جيشاً برياً وبحرياً ، وفى تصوره أنه سوف يكسب حرباً فى مصر ضد بطليموس ، ويستولى على مصر ذاتها ، وفى شتاء عام ٣٠٦ ق.م يتحرك الجيش البرى بقيادة أنتيجونس والبحرى بقيادة ابنه ديمتريوس ، وتتجه قوات أنتيجونس من جنوبى سوريا عبر سيناء للوصول إلى مصر ، ولكنه يفشل فى الاستيلاء على بلوزيوم (الفرما) ، ويفشل ديمتريوس فى اقتحام النيل وينسحبان من مصر قبل أن يهلكا مع قواتهما .

وتعود جيوش بطليموس للمرة الثالثة للاستيلاء على سوريا الجنوبية مختربة سيناء . ، ولكن إشاعة وصلت بطليموس عن انتصار لأنتيجونس دفعته إلى أن يعود من نفس الطريق منسحباً إلى داخل مصر . ويعود بطليموس للمرة الرابعة لاحتلال سوريا عقب معركة إيسوس مباشرة بعد أن يكشف كذب الإشاعة التى وصلته وانتصار حلفائه على أنتيجونس بعد قتله .

بطليموس الثانى : (فيلاد لفوس) ٢٨٤ - ٢٤٦ ق.م

نشبت فى عصره حربان سوريان لأن الأمر فى سوريا لم يكن قد استتب بين الأسرة السلوقية التى كانت سوريا من نصيبها طبقاً للتقسيم الذى حدث عقب مقتل أنتيجونس ، بينها وبين بطليموس الذى سارع بإعادة الاستيلاء عليها .

الحرب الأولى : ٢٧٦ ق.م

تقدمت القوات المصرية شمالاً واحتلت دمشق ولكنها تطرد منها وتبقى فى فينيقيا .

الحرب الثانية : ٢٦٢ ق.م

وفىها لقيت الجيوش المصرية بعض الهزائم حتى تم الصلح بين بطليموس الثانى وأنتيوخس ، وتم الاتفاق على أن يتزوج أنتيوخس بربيقة ابنة بطليموس .

بطليموس الثالث : (يوار حتليس) ٢٤٦ - ٢٢١ ق.م

انتهى أمر الزواج بين بربيقة وأنتيوخس بقتل أنتيوخس فى ظروف أدت إلى الشك فى زوجته الأولى لاوديقة ونشب صراع على العرش بين الزوجتين كل منهما تريد العرش لأنها ، فقتلت لاوديقة بربيقة وابنها ، فيخرج بطليموس الثالث شقيق بربيقة على رأس الجيش المصرى عام ٢٤٦ ليحتل سوريا

الشمالية وكيليشيا ، ويعبر الفرات ويصل إلى مدينة سليوفيا على نهر الدجلة دون مقاومة ، وتنشب في مصر أزمة داخلية بسبب حدوث مجاعة فيضطرون للعودة لمواجهة الأزمة .

بطليموس الرابع : (فيلوپاتور) ٢٢١ - ٢٠٥ ق . م

راودت الملك السلوق أنتيوخس الثالث فكرة الاستيلاء على سوريا الجنوبية لعلمه بضعف الملك المصري وفساد القصر الملكي ، ولم تكتمل محاولته الأولى عام ٢٢١ ق . م وفي المحاولة الثانية عام ٢١٨ ق . م تحرك بجيشه جنوباً إلى سوريا الجنوبية وفي سهولة إلى فينيقيا وسار جنوباً حتى استولى على غزة دون مقاومة تذكر .

وتحرك بطليموس الرابع على رأس جيشه الذي ضم جنوداً من الفلاحين المصريين لأول مرة في العصر البطلمي عبر سيناء ، ودارت المعركة بالقرب من مدينة رفح في ٢٢ يونيو عام ٢١٧ ق . م وكان للجنود المصريين الفضل الأكبر في كسب المعركة برغم فرار الملك وهزيمة فرسانه . واحتفظت مصر بسيادتها على سوريا الجنوبية بما فيها فينيقيا وفلسطين .

بطليموس الخامس : (إيفانوس) ٢٠٥ - ١٧٠ ق . م

في عصر هذا الملك الطفل وقبل أن يبلغ سن الرشد ثار أبيلوليموس قائد حامية بلوزيوم ، ولما انضمت إليه الإسكندرية سار إليها وسط ثورة الشعب وتأييده له ، وألقي القبض على الأوصياء الذين قتلوا الملكة وزيفوا وصية الملك ، ولكن ضعف هذا القائد أدى إلى عزله ، وتولى أرسطوميثس محله ، وتستغل الدول الأجنبية هذا الضعف فينقض أنتيوخس الثالث على سوريا الجنوبية ، ويزحف جنوباً حتى تسقط غزة في يده ٢٠٢ - ٢٠١ ق . م وتتغير القيادة العسكرية ويعين أسكوباس ، فيسترد غزة . ويطرد الجيش الغازي من فلسطين .

ويعود أنتيوخس ويكتب له النصر على سكوباس في معركة يانيون شمالي فلسطين ٢٠٠ ق . م وتنتهي سيادة مصر على سوريا الجنوبية نهائياً .

بطليموس السادس : فيلومينور ١٧٠ - ١٤٥ ق . م

في عصره يتحرك أنتيوخس الرابع ليغزو مصر ١٧٠ ق . م مستغلاً سوء الأحوال الداخلية وسيطرة الأوصياء . ويزحف من فلسطين إلى مصر التي تنهار أمامه في الحال حتى إنه استولى على بلوزيوم ومفيس دون مقاومة تذكر ، ويحاول بطليموس السادس الهرب فيقع أسيراً في يد الملك السوري ، وتنشب ثورة في الإسكندرية تطيح بكل نصحاء الملك ، وتعلن الأخ الأصغر لبطليموس السادس ملكاً ، ويقوم سفراء من اليونان بالوساطة مع الملك السوري ، فينسحب من مصر تاركاً بطليموس السادس يحكم من

مفيس ، والأخ الأصغر يحكم من الإسكندرية ، ولكنها يصلان إلى اتفاق يصبحان بمقتضاه ملكين بالاشتراك .

ويعود أنتيوخس لشن حرب جديدة عام ١٦٨ ق . م . ويتمكن من محاصرة الإسكندرية وتتدخل روما ، فيسحب من مصر وتتحرك الأحداث ويحكم بطليموس السادس مصر منفرداً . ويحاول الاستيلاء على سوريا مستغلاً النزاع الأسرى في الدولة السلوقية ، وينجح في الاستيلاء عليها . ولكن تدور عليه الدائرة ويسقط قتيلاً في أرض المعركة في فلسطين عام ١٤٥ ق . م .

كليوباترا السابعة ٥١ - ٣٠ ق . م

أوصى بطليموس الزمار عام ٥١ ق . م بعرشه في مصر لكبرى بناته التي كانت تبلغ من العمر ١٨ عاماً ولأكبر أبنائه بطليموس الثالث عشر الذي كان يصغر أخته . وبعد وفاته أرغم الأوصياء كليوباترا على الفرار بعد اتهامها بالرغبة في الانفرد بالحكم ، فهربت إلى الحدود الشرقية حيث جمعت لنفسها جيشاً من القبائل السامية ، وتأهبت للزحف على الإسكندرية لاسترداد عرشها ، ولكن الأوصياء أعدوا لبطليموس الصغير جيشاً رابط على مقربة من بلوزيوم (الفرما) ليسد الطريق على كليوباترا . وفي هذه الأثناء وصل قيصر إلى الإسكندرية عام ٤٨ ق . م فعاد الملك والملكة إلى المدينة للحكم بينهما .

ويسفر اللقاء عن قصة غرام بين قيصر وكليوباترا . وبعد مصرع قيصر يقع أنطونيو غريمه في هوى الملكة الفاتنة ، وينشب مرة أخرى صراع على السلطة في الإمبراطورية الرومانية ، ويقتحم أكتامتيوس (أغسطس) الحدود الشرقية لمصر ، ويستولى على بلوزيوم ، ويتابع سيره إلى الإسكندرية للقضاء على أنطونيو وكليوباترا .

وفي الأول من أغسطس عام ٣٠ ق . م يتحقق له فتح مصر ، وينتهي بذلك العصر البطلمي ليبدأ العصر الروماني .

وكانت مصر آخر قطر من أقطار البحر المتوسط يقع في أيدي الرومان .

سيناء في العصر الروماني

كان لبلوزيوم مكانة كبيرة في العصر الروماني لاحتلالها موقعا برياً خطيراً ، فربطت بها حامية عسكرية ، وجرى تشييد قلاع على امتداد الطريق الساحلى المؤدى إلى سوريا لمنع غارات العرب . ولا شك أن القلاع الحربية التى رابطت بها قوات من الفرق الرومانية أو الكتائب المساعدة لم تلبث أن جرى تشييدها على الحافة للدلتا على الطريق الذى يربط الفرما (بلوزيوم) ببابلون ومنف عن طريق النيل وعلى الطريق الممتد من الفرما إلى القلزم (السويس) مجتازا سيرايوم .

وفى عصر الإمبراطور جستنيان كانت الحدود تنتهى شرقاً بين العرش ورفح ، وكان حد أوجستا منىكا من أهم الحدود من جهة آسيا على الرغم من أن هذه الجهات لم تتعرض للهجوم قبل القرن السابع الميلادى ، ومع هذا فإن الهجوم قد يحدث فى يوم من الأيام وإذا وقع فسوف يكون من أشد الهجمات خطورة .

وحدث فى عصر الإمبراطور أنستاسيوس الثانى أن توغلت بعض القوات الفارسية فى الدلتا حتى بلغت ضواحي الإسكندرية ، ولذا صار من المحتم حماية ما بالوجه البحرى من زراعات وافرة وإغلاق الطريق المؤدى إلى الإسكندرية فى وجه المهاجمين ، فجرى تحصين المدن الواقعة شرق حد أوجستا منىكا مثل القلزم (السويس) والعرش .

وما زالت بقايا أسوار العرش الضخمة قائمة حتى القرن الثانى عشر الميلادى .

ومن المواقع الحصينة أيضاً بلوزيوم التى صمدت لحصار العرب خلال فترة السلام الممتدة ، وقد تعرضت الحدود المصرية لهجوم قامت به زنبوبيا ملكة تدمر (فى الصحراء الغربية بين سوريا وبابل) التى لم تقنع بالمركز الممتاز لها فى الإمبراطورية الرومانية ولا بالثراء العريض وسعت أن تكون لها إمبراطورية وبعد أن بسطت سلطانها على الولايات الشرقية أرسلت إلى مصر جيشاً ضخماً عام ٢٦٩ عبر سيناء ، فاحتلها واستمرت مصر تحت سلطان زنبوبيا وابنها حتى عادت من جديد إلى الرومان عام ٢٧١ ق . م .

وقد مرت مصر بفترة من الاضطرابات الدينية والثورات ضد الأباطرة الرومان فى الوقت الذى

كانت فارس تتحرك تحت حكم كسرى الثانى لتستعيد مجد الإمبراطورية الفارسية القديمة ، فتحرك جيشها غربا لاحتلال أنطاكيا وآخر جنوبا للاستيلاء على بيت المقدس . وبعد أن تم للجيشين تحقيق هدفهما كان الهدف التالى للجيش الجنوى مصر ، ولما اقترب خريف ٦١٦ كان الاستعداد لغزو مصر قد تم وتولى (شاهين) قيادة الجيش الفارسى الموجه لفتح مصر ، وبدأت مسيرة من العريش إلى بلوزيوم التى لم تبد أى مقاومة للغزاة ثم إلى بابليون حتى وصلوا إلى الإسكندرية التى صمدت فى مقاومتها وتحتم على الفرس أن يحاصروها حتى سقطت بالخيانة والخديعة فى يونيو ٦١٨ ، ومم للفرس فتح مصر وانسحبت الحاميات البيزنطية من سائر البلاد ، وجلت عن مصر حتى انتصر هرقل الإمبراطور البيزنطى وعادت مصر إلى حظيرة الإمبراطورية البيزنطية .

سيناء في العصر الإسلامي

فتح مصر :

بعد أن تم للمسلمين فتح بيت المقدس واتجاه عمرو بن العاص لحصار قيسارية طلب من الخليفة عمر بن الخطاب أن يذن له في فتح مصر ، وأوضح له أنها أكثر الأرض أموالا ، وأهلها أعجز الناس عن الدفاع عن أنفسهم وقال له : (وإنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم) كما كان عمرو يخشى أن يؤدي بقاء مصر في أيدي الروم إلى تهديد مركز العرب الجديد في بلاد الشام وخاصة بعد أن لجأ بيت المقدس البيزنطي إلى مصر ، وأخذ يجمع الجند ويحشد الحشود تمهيدا لاسترداد بلاد الشام من العرب .

وانتهى الأمر بموافقة الخليفة على طلب عمرو وحشد له أربعة آلاف مقاتل ، ومضى عمرو بجيشه ولم تعترضه أحداث حتى بلغ رفح وتجاوزها في الطريق إلى العريش ، وثمة قصة متواترة في بعض مصادر التاريخ لا نستطيع القمع بصحتها مؤداها أن عمر بن الخطاب أرسل لعمرو كتابا قال فيه : (إني مرسل إليك كتابا فإن أدركك ، قبل أن تدخل مصر فانصرف ، وإن دخلتها فأقصد واستعن بالله واستنصره) وتذكر الرواية أيضا أن الكتاب وصل إلى عمرو وهو برفح ، فرفض أن يتسلمه من الرسول حتى قارب العريش ليضمن أنه دخل أرض مصر .

ودخل عمرو العريش واحتلها دون مقاومة وفيها احتفل العرب بعيد الأضحى عام ١٨ هـ ، ١٢

ديسمبر ٦٣٩ م .

وتقدم عمرو ، فسقطت بلوزيوم في يده في يناير سنة ٦٤٠ م بعد حصار لم يستمر شهرا . وكانت هذه المدينة القديمة التي على مسافة ميل ونصف الميل من البحر المتوسط وعند مصب الفرع اليلوزي للنيل تعتبر مفتاح مصر من جهة الشرق ، وتشرف على الطريق الممتد عبر الصحراء . ولما اطمأن عمرو بعد استيلائه على بلوزيوم لجأ إلى تأمين خط مواصلاته مع بلاد العرب وطريق العودة إذا حلت بجنده الهزيمة . بعدها اتخذ طريقه نحو الجنوب الغربي ، فسلك الطريق الذي يجاذى الخافة الشرقية للدلتا وهو الطريق الذي سبق أن سلكه الفرس حتى بلغ بلبس ، بعدها مضى عمرو في طريقه

حتى وصل إلى النيل ، ولحظتها أدرك تيودور القائد العام للقوات البيزنطية في مصر أن تلك الحرب ليست غارة من غارات البدو بل حربا خطيرة .

وانتهى الأمر بفتح العرب لمصر .

وبسبب هجرة كثير من العرب المسلمين إلى الجزيرة وتخلف بعض المقاتلين بها تحول أهلها إلى الإسلام .

وشهدت سيناء طوال العصر الإسلامي قوافل التجارة من مصر إليها ، وقوافل المهاجرين النازحين من الأرض العربية ، كما شهدت أيضا جيوش المسلمين وهي في طريقها للخروج من مصر أو القدوم إليها .

ومر بها معاوية بن أبي سفيان عام ٣٦ هـ ، ٦٥٦ م في طريقه إلى مصر بعد مقتل عثمان ، ولكن محمد بن أبي حذيفة والى مصر يتصدى له ويمنعه في البداية قبل أن يلجأ معاوية إلى الخديعة حتى ينجح في النهاية مستخدما مهارته السياسية في القضاء على الحزب العلوي وعلى رأسه ابن أبي حذيفة الذي قتل بعد قليل .

ومر بها الأشتر النخعي بعد أن عينه على بن أبي طالب واليا على مصر ، فيواجه مؤامرة تنجح في قتله مسموما عند القلزم ، وكان معاوية خلف هذه المؤامرة .

الدولة الأموية :

للمرة الثانية يقود عمرو بن العاص جيشا في طريقه إلى مصر عام ٦٥٨ م . ٣٨ هـ بتكليف من معاوية لقتال محمد بن أبي بكر الذي ولي مصر والذي ينتهي الأمر بهزيمته ومقتله ، وتصبح مصر ولاية للدولة الأموية وعمرو بن العاص واليا عليها مرة أخرى .

وعندما عين عبد الله بن الزبير الذي شق عصا الطاعة على الأمويين عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهري نائبا عنه في حكم مصر أرسل الخليفة الأموي مروان بن الحكم جيشا بقيادة ابنه عبد العزيز لطرد عامل عبد الله بن الزبير وتنتصر جيوش مروان وتنزل الهزيمة بابن جحدم .

الدولة العباسية :

عندما لم يستطع مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين في المشرق التغلب على الموقف العدائي الذي اتخذته المصريون منه أرسل جيشا كبيرا بقيادة حوثة بن سهيل الباهلي الذي ولاه على مصر فيتمكن من القبض على اليمنية أعداء المعزية في البلاد وقتلهم جميعا عام ٧٤٦ م . ١٢٨ هـ . وعندما حلت الهزيمة بمروان بن محمد في موقعة الذاب الأصغر بالعراق فر إلى الموصل ثم إلى حران وفلسطين حيث توالى عليه الهزائم فلم يجد أمامه سوى مصر ، فوصل إليها عبر سيناء ودخل الفسطاط ولكن العباسيين لاحقوه

وانتهى الأمر بمقتله عام ١٣٢ هـ ، ٧٤٩ م .

وأصبحت مصر ولاية عباسية منذ أوائل عام ١٣٣ هـ ، ٧٥٠ م . ولم تهدأ الأحوال في مصر ، فقد خرج على الخلافة العباسية في عهد الخليفة المهدي ١٥٨ - ١٦٩ هـ أحد أبناء البيت الأموي (دحية بن مصعب بن الأصبع) ، وأرسلت الخلافة الجيوش عبر سيناء لمكافحته حتى انتهى الأمر بأسره . وضرب عنقه في القسطنطينية عام ١٦٩ هـ ، ٧٨٥ م .

الدولة الطولونية :

في عام ٢٥٤ هـ ، ٨٦٨ م أتى إلى مصر أحمد بن طولون على رأس جيش مده به باكباك وإلى مصر المقيم في بغداد وهذا الجيش تغلب ابن طولون على منافسيه من كبار الموظفين ، وفي أثناء ثورة عيسى بن الشيخ ضد الخلافة في بلاد الشام أنشأ ابن طولون جيشا مستقلا ، وخرج على رأسه قاصدا الشام لإخماد تلك الثورة .

ونجح ابن طولون في أن يحول مصر إلى دولة طولونية .

وظل يسعى حتى قلده الخليفة بلاد الشام بعد أن زحف إليها على رأس جيوشه عام ٢٦٤ هـ .

٨٧٧ م .

وخرج ابن طولون إلى الشام للمرة الثالثة عام ٢٦٩ هـ ، ٨٨٢ م ليواجه مؤامرة غلامه لؤلؤ الذي انضم إلى جيش عدوه المسمى بالموفق .

خلف خمارويه والده ابن طولون في حكم مصر ، وانتزح الموفق أخو الخليفة المعتمد هذه الفرصة لاسترداد مصر والشام من قبضة الطولونيين ، فبادر خمارويه بإرسال جيشين إلى الشام بقيادة كاتب أبيه أحمد بن محمد الواسطي وسعد الأيسر وعزز هذين الجيشين بقوة بحرية ضخمة من السفن لتقيم بالسواحل الشامية .

واستولت قوات الموفق على الرقة وقنسرين ومضت في بلاد الشام حتى استولت على دمشق ، وتقدمت جنوب الرملة تريد غزو مصر نفسها ، فأظهر خمارويه رباطة جأش كبيرة ، وخرج بنفسه إلى بلاد الشام وحلت الهزيمة بجيوشه في أول الأمر في موقعة الطواحين بين الرملة ودمشق ، ولكن الجيوش الطولونية استطاعت أن تعيد تنظيم صفوفها بقيادة سعد الأيسر ، وانتصرت على القوات العباسية وطردتها من الشام .

وكان خمارويه قد عاد إلى مصر بعد هزيمته الأولى ، فاستغل سعد الأيسر انتصاره فدخل دمشق واستولى عليها ، واستخف بخمارويه الذي بلغه النبأ ، فخرج إلى الشام عام ٢٧٢ هـ ، ٨٨٥ م ، وحارب سعد الأيسر حتى هزمه وقتله ، كما قاتل ابن كنداج حليف الموفق وأنزل به الهزيمة وطارده

ولم تنته متاعب خمارويه ، فقد بلغه مسير محمد بن أبي الساج عميل الموفق إلى مصر ، فخرج إليه وقاتله على نهر دجلة حتى هزمه عام ٢٧٦ هـ ، ٨٨٨ م .

الدولة العباسية للمرة الثانية :

عندما حاق الضعف بالدولة الطولونية في مصر أرسل الخليفة العباسي المكتفي جيشا بقيادة محمد بن سليمان أمير دمشق للزحف على مصر ، وقاوم الطولونيون الغزاة ولكن تمكن محمد من دخول مصر وإحراق القنطرة عاصمة الطولونيين ولم يسلم منها سوى جامع أحمد بن طولون عام ٢٩٢ هـ ، ٩٠٥ م وعادت مصر مرة أخرى إلى حظيرة الدولة العباسية .

وبعد أن نجح الخليفة المكتفي في السيطرة على مصر قامت حركة بقيادة ابن الخليلج (الخننجي) للدعوة لإحياء الدولة الطولونية فشر الخليفة بخطرهما ، فأرسل الجيش تلو الآخر لإخضاع هذه الحركة ، وم له ذلك عام ٢٩٣ هـ ، ٩٠٥ م .

وواجه الولاة العباسيون في مصر خطر الفاطميين في شمالي أفريقيا ، وعندما لم يتمكن والى مصر أبو منصور تكين من وقف الغزو الفاطمي استنجد بالخليفة المقتدر ، فأرسل جيشا كبيرا بقيادة مؤنس الخادم الذى أنزل الهزيمة ببجاسة قائد الجيش الفاطمي .

الدولة الإخشيدية :

أقام محمد بن طغج في بادية الشام حتى اتصل بأبي منصور تكين والى مصر ، ولم يلبث أن أخذ نجمه يعلو بسرعة ، فقام بدور كبير في طرد الفاطميين من مصر ٣٠٢ - ٣٠٧ هـ ، ٩١٤ - ٩١٩ م فضلا على جهوده في حماية الحجاج من الأعراب والبدو الذين قطعوا طريق الحج عام ٣٠٦ هـ ، ٩١٨ م بين دمشق والحجاز فولاه الخليفة العباسي مصر .

وفي عام ٣٢٨ هـ ، ٩٣٩ م نشب الخلاف بين محمد بن طغج وابن رائق الطامع في بلاد الشام ، فخرج على رأس جيشه قاصدا الرملة ودارت مناوشات خفيفة بين الفريقين وعقد صلح بينهما ، ولم يكد محمد الإخشيد يصل إلى الفسطاط حتى بلغه أن ابن رائق قد نقض الصلح ، وأنه بارح دمشق متجها صوب حدود مصر ، فعاد الإخشيد مسرعا ليلتحم هو وجيش ابن رائق وأسر خمسمائة من رجاله .

وفي عام ٣٢٩ هـ - ٩٤٠ م توفي الخليفة الراضى العباسي وتولى أخوه المتقي الخلافة فأقر ابن طغج الإخشيد على مصر ، وولى ابن رائق منصب أمير الأمراء ، ولكنه قتل بعد قليل ، عندئذ رأى الإخشيد الفرصة سانحة ليسترد بلاد الشام ، فخرج إليها مسرعا وكان هذا ثالث خروج له من مصر على رأس جيش عام ٣٣٠ هـ - ٩٤١ م ودخل دمشق ولم يعد إلى مصر إلا بعد أن ثبت نفوذه في بلاد الشام .

وللمرة الرابعة يخرج الإخشيد من مصر لمساندة الخليفة الذى استنجد به لمقاومة أمير الأمراء توزون عام ٣٢٢ هـ ، ٩٤٣ م وعندما حاول سيف الدولة الحمداني بسط نفوذه على بلاد الشام أرسل الإخشيد جيشا بقيادة كافور إلى الشام ، وبتنصر على سيف الدولة فى أول الأمر ، وعندما تبعهم أنزلوا به الهزيمة ، فخرج الإخشيد بنفسه للمرة الخامسة إلى الشام ، ودارت بينه وبين سيف الدولة حروب فى شمال الشام لم ترجح فيها الكفة لأحد الطرفين حتى انتهى الأمر بالصلح ٣٣٤ هـ - ٩٤٥ م ، وبعد أن مات الإخشيد اغتم سيف الدولة الحمداني الفرصة وزحف على دمشق واستولى عليها ، عندئذ لم يتقاعد كافور عن حماية أراضي الدولة ، وخرج إلى الشام على رأس جيش كبير وصحبه أنوجور بن الإخشيد الصغير والذى خلفه فى حكم مصر وعمه الحسن بن طغج أخو الإخشيد ، وعند الرملة دارت موقعة كبيرة بين الإخشيديين والحمدانيين انهزم فيها سيف الدولة الحمداني وفر شمالا إلى حلب ومنها إلى الرقة .

الدولة الفاطمية :

أرسل جواهر الصقل حملة إلى الشام بقيادة القائد المغربي جعفر بن فلاح الكتامي للقضاء على بقايا البيت الإخشيدى ، فهزم الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد عند الرملة عام ٣٥٩ هـ ، ٩٧٠ م . وكان مصدر الخطر بالنسبة للفاطمين فى بلاد الشام بعد ذلك هم الحمدانيون والقرامطة ، وفعلا تمكن القرامطة من الاستيلاء على دمشق ٣٦٠ هـ . ٩٧١ م . وأنزلوا الهزيمة بجعفر بن فلاح وقتلوه . ولم يقنع الحسن بن أحمد قائد القرامطة بدمشق ذلك ، وإنما أراد غزو مصر نفسها ، فدخل الرملة وهجم على مدينة القلزم على رأس خليج السويس ، ومنها شق الصحراء حتى وصل عين شمس فى أوائل ٣٦١ هـ - ٩٧٢ م ، وصارت القاهرة على مرمى بصره ، فأسر جواهر الصقل بتحسينها وحفر خندقا حولها . ونتيجة لصموده وانتصاره انسحب الحسن بن أحمد من مصر إلى الأحساء . ولكنه عاد بعد قليل ليعاود الهجوم على مصر برا وبحرا .

وعندما هدده المعز لدين الله الفاطمى لم يعبأ وأوغل فى الأراضي المصرية حتى مشارف القاهرة ٣٦٣ هـ ، ٩٧٤ م ، ودارت معركة هزم فيها القرامطة ، واستغل الخليفة المعز الموقف وبادر بإرسال جيش إلى الشام لمطاردة القرامطة وإعادة فتحها إلى حوزة الدولة الفاطمية . وفشل الجيش نتيجة الصراع مع الدمشقيين ودخول الأتراك بزعامة أفتكين التركي بلاد الشام ومعاونة الحمدانيين لأفتكين ، فخرج جواهر الصقل إلى الشام بتكليف من الخليفة العزيز بالله عام ٣٦٥ هـ - ٩٧٦ م .

وانتهت حملة جواهر بالعودة بعد صلح بشروط مهينة ، فسار الخليفة العزيز بنفسه إلى الشام على رأس جيش كبير عام ٣٦٧ هـ ، ٩٧٧ م وتمكن من إنزال الهزيمة بأعدائه .

وظلت الحشود الفاطمية تخرج من مصر وتعود إليها عبر سيناء حتى ظهر الصليبيون في شاطئ الشام ، وقوضوا نفوذ السلاجقة والفاطمين .

الصليبيون :

وقفت الدولة الفاطمية موقفا مضطربا يتسم بعدم الفهم لحقيقة الحركة الصليبية في أدوارها الأولى ، وليس هناك من تفسير لهذا الموقف سوى انشغال الفاطمين بمشاكلهم الداخلية وتوكلهم روح العداء بين الفاطمين الشيعة في مصر والسلاجقة السنيين في الشام ، وهو العداء الذي جعل الفاطمين ينظرون في أول الأمر إلى الصليبيين كقوة مفيدة . ويمكن أن تشكل حاجزا بينهم وبين خصومهم السلاجقة ، لهذا كله اتصفت الأعمال الحربية في ذلك الدور بسوء النظام والإهمال وعدم تقدير خطورة الموقف .

وتنبه الفاطميون للخطر الصليبي عندما رأوا جموع الصليبيين تستوفى على بيت المقدس ، فخرج الوزير الأفضل بنفسه على رأس الجيش الفاطمي إلى بلاد الشام لدفع الصليبيين ، فحلت الخزيمة به ونحيشه عند عسقلان في أغسطس ١٠٩٩ م ، ٩٤٢ هـ وساعد هذا الانتصار على تثبيت أقدام الصليبيين في فلسطين وتوسيع نفوذهم .

وبرغم سوء أوضاع الدولة الفاطمية فقد بادر الوزير الأفضل بإرسال ثلاث حملات كبيرة إلى فلسطين عام ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ هـ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٥ م ، ولكن الحملات الثلاث منيت بالفشل الذريع نتيجة لسوء التنظيم والخلاف بين القادة وعدم التعاون بين الأسطول الفاطمي والجيش البرية ، وترتب على ذلك أن تمكن الصليبيون من الاستيلاء على بقية موانئ الشام ومدنه الجنوبية مثل صيدا وبيروت ، وتطلّعوا إلى مصر ذاتها واستولوا بدوين الأول ملك بيت المقدس الصليبي على وادي عربة ، ووصل إلى إيالة على البحر الأحمر . واخترق شبه جزيرة سيناء ، واتجه إلى الدير فرفض الرهبان استضافته ، وأوغل في أرض مصر ، واتجه إلى الفرما واستولى عليها ونهبها ثم تقدم إلى تنيس جنوبي بحيرة المنزلة حيث مات نتيجة لمرض مفاجئ بالعريش وهو في طريق عودته سنة ٥٢٠ هـ ١١١٨ م .

وكان الوزير رضوان بن الوحشى شديد التحمس لجهاد الصليبيين . فأنشأ ديوانا أسماه ديوان الجهاد ، ولكنه علم أن الخليفة الحافظ الفاطمي يكيد له سرا ففر إلى بلاد الشام وحصل على معونة من عماد الدين بن زنكي أنابك حلب (وإلى حلب) إلا أنه لم يستطع عند عودته إلى مصر أن يتغلب على جيوش الخليفة الفاطمي ، وانتهى الأمر بقتله عام ٥٣٤ هـ ١١٣٩ م ، وفي النزاع الذي شب بين شاور وضرغام حول منصب الوزارة منذ عام ٥٥٨ هـ ١١٦٣ م استعان كل طرف من الطرفين المتنازعين بقوة

خارجية فاستعان ضرغام بالصلبيين واستعان شاور بنور الدين محمود بن عماد الدين زنكى .
وغدت مصر مسرحا لتنافس خطير .

وكان الصليبيون منذ وصولهم إلى العالم العربى يطمعون فى الاستيلاء على مصر . وفى نفس الوقت كان نور الدين محمود يرى أنه لكي تكتمل الحلقة الإسلامية والتعبير عن فكرة الجبهة الإسلامية المتحدة التى دعا إليها لمواجهة الخطر الصليبي يجب أن يستولى على مصر .

وقد حاول عمورى الأول الملك الصليبي على بيت المقدس غزو مصر سنة ٥٥٨ هـ - ١١٦٣ م فوصل إلى بليس وحاصرها ، ولكن ضرغام أرغمه على الانسحاب .

وأرسل نور الدين حملته الأولى إلى مصر سنة ٦٦٩ هـ - ١١٦٤ م بقيادة أسد الدين شيركوه وبصحبه شاور وصلاح الدين ابن أخى شيركوه ، وكان فى السابعة والعشرين من عمره ، وهنا استنجد ضرغام بالصلبيين وتعهد لعمورى الأول - مقابل مساعدته - أن يعقد معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصلبيين ، ولكن شيركوه قطع الصحراء بسرعة وسبق الصليبيين فى الوصول إلى الدلتا ، وانتصر على الجيش الذى أرسله ضرغام ، ونجح فى الدخول إلى القاهرة فى بداية مايو سنة ٥٥٩ هـ . سنة ١١٦٤ م .

ونشب صدام آخر بين شاور وشيركوه ، فاستنجد شاور بعمورى الأول الصليبي الذى قدم بمجيئه ، وحاصر شيركوه فى بليس ، وتم الاتفاق على مغادرة شيركوه وعمورى لمصر فى أواخر نفس العام . وقد أتاحت الفرصة لنور الدين الذى يريد القضاء على الخلافة الفاطمية فى مصر التى تدين بالشيعة وتمزق العلم الإسلامى بين شيعة فى مصر وسنة فى بغداد ، عندما أرسل إليه الخليفة العاضد الفاطمى يشكو من استبداد شاور ، فأرسل حملة شيركوه الثانية سنة ٥٦٢ هـ . سنة ١١٦٧ م واستنجد شاور بعمورى الأول الصليبي مرة أخرى الذى أسرع بمجيئيه لغزو مصر للمرة الثالثة .

وتحول الصليبيون إلى حماة لمصر والخلافة الفاطمية بعد اتفاق عقده مع شاور ، وينتهى الأمر بعقد اتفاق يعود بمقتضاه شيركوه وعمورى ويتركان مصر لينعم بها شاور من جديد .

بقيت قوة صليبية تحمى أبواب القاهرة التى بقى بها مندوب للملك الصليبي ، ورأى عمورى أن يحالف بيزنطة ليعود ويغزو مصر ، ولكنه انفرد بالهجوم على أرض النيل وغزا مصر للمرة الرابعة سنة ٥٦٤ هـ ، ١١٦٨ م . واستنجد شاور بنور الدين محمود هذه المرة ، واضطر عمورى إلى الانسحاب عائدا إلى فلسطين فى يناير سنة ١١٦٩ م ، ٥٦٤ هـ . وفى عام ١١٦٩ م ، ٥٦٥ هـ بعد أن نوى صلاح الدين حكم مصر عقد عمورى الأول الصليبي حلفا مع الإمبراطور مانويل كومنين البيزنطى لغزو مصر برا وبحرا ، وتقدم الجيش البرى فى أكتوبر سنة ١١٦٩ م ، ٥٦٥ هـ من عسقلان إلى الفرما قاصدين دمياط . . . وصمد صلاح الدين وأرسل نور الدين محمود أرتالا من العساكر يتلو بعضها بعضا . واستبسل أهالى دمياط ، وانسحب الصليبيون بعد فشلهم .

وتخلص صلاح الدين من الخلافة الفاطمية في مصر ، ومات آخر خلفائها العاضد وهو لا يعلم بهذه النهاية . وطلب نور الدين من صلاح الدين أن يخرج من مصر لمهاجمة حصن الشوبك سنة ١١٧١ م . ٥٦٧ هـ وقبل أن يكتب له النجاح عاد إلى مصر خشية أن يقبض عليه نور الدين ، ومرة ثانية يخرج صلاح الدين للاستيلاء على حصون الصليبيين في الشوبك والكرك . وعندما يقترب نور الدين من الكرك يتخوف صلاح الدين ويعود إلى القاهرة بحجة وصية أبيه . ونفذ صر نور الدين وأخذ يستعد للزحف على مصر لتأديب صلاح الدين ، وبينما هو يستعد للقيام بحملته إذ به يموت في مايو سنة ١١٧٤ م . ٥٦٩ هـ . وبذلك صار الميدان خاليا أمام صلاح الدين . وعندما شب النزاع بين ورثة نور الدين محمود استنجد بعضهم بصلاح الدين ، فخرج من مصر على رأس جيش من سبعة آلاف فارس ، فوصل دمشق سنة ١١٧٤ م ٥٧٠ هـ . دون أن يصطدم هو والصليبيون في الطريق .

حروب صلاح الدين ضد الصليبيين :

في الفترة الأولى من ١١٧٤ - ١١٨٦ م (٥٧٠ - ٥٨٢ هـ) لم يكن صلاح الدين عندما خرج إلى الشام متفرغا للحرب ضد الصليبيين بل كان هدفه توحيد الجبهة الإسلامية .

أما في الفترة الثانية ١١٨٦ - ١١٩٢ م (٥٨٢ - ٥٨٨ هـ) فكان صلاح الدين قد فرغ من توحيد الجبهة الإسلامية ، وتفرغ للنضال ضد الصليبيين ، وفي عام ١١٨٢ م . ٥٧٨ هـ استولى أرناط الصليبي صاحب حصن الكرك على «أيلة» الميناء الهام على رأس خليج العقبة ، وواصل اعتداءاته على الموانئ المصرية بالبحر الأحمر ، والموانئ الحجازية فحاصر صلاح الدين الكرك وقاتل العادل أخوه في البحر ففر أرناط بصعوبة .

واكتفى بعقد هدنة مدتها أربع سنوات انتهكها أرناط بعد ذلك بانقضاضه على قافلة للمسلمين كانت متجهة من القاهرة إلى دمشق في أواخر عام ١١٨٦ م وأوائل عام ١١٨٧ م (٥٨٢ هـ) . واختار صلاح الدين دمشق مقرا له خلال هذه المرحلة الحاسمة التي استمرت حتى نهاية القرن الثالث عشر بالقضاء على آخر البقايا الصليبية في الشام .

وفي عام ١١٨٧ م - ٥٨٣ هـ زحف العادل أخو صلاح الدين من مصر واستولى على يافا .

الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين :

بعد موت صلاح الدين كانت مصر من نصيب ابنه العزيز عثمان الذي خرج من مصر صيف عام ١١٩٤ م - ٥٩٠ هـ قاصدا الشام وحاصر أخاه الأفضل .

ولما تحالف أفراد الأسرة الأيوبية في الشام عاد إلى مصر ليخرج منها ثانية قاصدا دمشق ، وتكرر القصة نفسها إلى مصر مرة أخرى .

وتم الاتفاق بين الأفضل أخى العزيز والعايد عمه وجمعا جيوشها واستوليا على بيت المقدس ،
 وشرعا يزحفان على العزيز فى مصر حتى وصلا بلبس وحاصراها وتم عودتها بعد ذلك .
 وتسوء الأمور فى دمشق نتيجة فساد الأفضل فيتفق العادل والعزيز ويخرج الاثنان من مصر فى يونيه
 ١١٩٦م - ٥٩٢هـ قاصدين دمشق التى تسقط فى أيديهم فى أوائل يوليو .
 وعندما حاول الصليبيون الزحف على بيت المقدس استنجد العادل بالعزيز عثمان ، فحضر إليه فى
 أوائل عام ١١٩٩م - ٥٩٤هـ وتمكن المسلمون من الصمود فى وجه الصليبيين .
 وفى عام ١١٩٩م - ٥٩٥هـ ، خرج الملك الأفضل من مصر على رأس جيش مصرى إلى دمشق
 للإطاحة بعمه العادل متآمرا مع أخيه الملك الظاهر ملك حلب .
 ولما فشل فى تحقيق هدفها عاد الملك الأفضل إلى القاهرة فى أواخر ديسمبر ١١٩٩م - ٥٩٦هـ .
 وتبعه الملك العادل وأنزل به الهزيمة قرب بلبس ، وأصبحت مصر للعادل فى فبراير
 ١٢٢٠م - ٥٩٦هـ .

ولم يلبث أن خرج العادل من مصر لمواجهة مؤامرة جديدة أعدها الأفضل والظاهر لمحاصرة
 دمشق ، وأصبح العادل بعد هذه المؤامرة سلطان البلاد جميعا ، وولى ابنه الكامل (محمد) على مصر
 وفى عصر الكامل حاول الصليبيون غزو مصر ، ولكن بالبحر هذه المرة .

الحملة الخامسة :

وفى أثناء مقاتلة المصريين للصليبيين حول دمياط أغار بدوسينا على القرى ونهبوها مستفيدين من
 حالة الفوضى القائمة ، وبعد دحر حملة الصليبيين الخامسة على البيت الأبيض من الانقسامات ،
 وخرج الكامل من مصر لمحاربة السلاجقة ، ولكنه عاد عندما عرف بمؤامرة محوكة ضده فى الشام .
 وخرج الكامل من مصر مرة أخرى لمواجهة حركة بين أبناء البيت الأبيض للتخلص منه قضى عليها
 واستولى على دمشق فى أوائل ١٢٣٨م - ٦٣٥هـ ، وبعد موت الكامل وتولى ابنه العادل الثانى ملك
 مصر خرج عام ١٢٣٩ ، ٦٣٧هـ لمواجهة حملة صليبية جديدة ، وأنزل بالجيش الصليبي الهزيمة قرب
 غزة فى ١٣ نوفمبر .

ومرة أخرى بعد عزل العادل من حكم مصر حاول الصليبيون التقدم لغزوها بمعاونة من بعض أبناء
 البيت الأبيض ، وقرب غزة انضم أبناء البيت الأبيض بقواتهم إلى القوات المصرية التى قدمت لمواجهة
 هذا الغزو ، ودحروا الصليبيين فى عهد الصالح نجم الدين أيوب الذى عقد معهم صلحا عام
 ١٢٤٠م ، ٦٣٨هـ . وعندما حاول الصليبيون مرة أخرى متحالفين مع الصالح إسماعيل الأبيض
 حاكم دمشق . والناصر داود صاحب الأردن والمنصور إبراهيم ملك حمص غزو مصر ، دفع السلطان

الصالح أيوب يمنحده نحو غزة ، وانضم إليه حلفاؤه الخوارزمية ، وفي المعركة التي دارت بين الطرفين منى الصليبيون بالهزيمة الساحقة .

وبعدما انطلق الجيش المصرى لعقاب صاحب الكرك ودمشق لتحالفهما مع الصليبيين ، وكان هذا آخر خروج للملوك الأيوبيين عبر سيناء .

عصر المماليك البحرية :

لم يسلم الأيوبيون في الشام باعتراف شجرة الدر للعرش في مصر وبدء عصر المماليك . وبعد زواج المعز أيك التركمانى من شجرة الدر وتولية صبي من البيت الأيوبي ابن الأشرف موسى شريكا في الحكم - اسما جمع الأيوبيون جيشا يريدون به غزو مصر ، ولكنهم هزموا على يد المماليك البحرية عند العباسية بالشريعة ٦٤٨هـ ٢ فبراير ١٢٥١ م .

وتشجع المعز أيك ، وأرسل حملة بقيادة فارس الدين أقطاي ، فاستولى على غزة . وتقتل شجرة الدر ويتولى على بن أيك ويسعى الملك المغيث عمر الأيوبي بتحريض من المماليك البحرية الذين سبق أن فروا إلى الشام لغزو مصر ، وتصل قواته إلى الصالحية بالشريعة لتلقى الهزيمة .

وبعد أن تولى قطز السلطة في مصر وكان المغول قد وصلوا غزة أرسل إليهم بيبرس البندقدارى على رأس مقدمة الجيش ليتحسس أخبارهم ، وبعد انسحاب المغول من غزة احتلها المماليك ، وبعد وصول قطز على رأس الجيش وبعد الانتصار على المغول في عين جالوت عاد قطز وبيبرس وانتهر بيبرس الفرصة وقتل قطز في الطريق واستأثر بالحكم ، ولما رفض الأمير علم الدين سنجر والى دمشق الدخول في طاعة بيبرس أرسل إليه حملة بقيادة الأمير علاء الدين البندقدارى نجحت في إحضار الأمير إلى القاهرة ٦٥٩هـ (يناير ١٢٦١ م) .

وعندما استولى الأمير شمس الدين آقوش البرلى على حلب وعزم على السير إلى مصر لغزوها أرسل الظاهر حملة قضت على جيشه .

وبدأت حرب بيبرس ضد الصليبيين عام ٦٦١هـ (١٢٦٣م) عندما هجمت جيوشه على الناصرة وهجم هو بنفسه على مدينة عكا وإن لم يفلح في الاستيلاء عليها .

وفي عام ٦٦٣هـ (١٢٦٥م) استولى بيبرس على قيسارية وعتليت وارسوف ، وفي العام التالى استولى على صفد وهونين وتيبين والرملة . وعام ٦٦٥هـ أرسل جيشا تحت قيادة الأمير قلاوون للاستيلاء من مملكة أرمينيا لصغرى وإمارتى أنطاكية وطرابلس لتحالفهما مع المغول ضد المسلمين ، فاستولى على بعض القلاع التى شمال طرابلس .

وفي نفس العام وجه حملة ضخمة ضد أرمينية الصغرى أنزلت هزيمة كبيرة بالأرمن قرب

دريالك (٢٤ أغسطس) ، ودمرت جيوشه مدن أرمينية الصغرى وبخاصة أدنة وطرسوس والمصيصة وبيس .

وتم الاستيلاء على أنطاكية في مايو ١٢٦٨ م ، وفي عام ٦٦٩ هـ (١٢٧١ م) استولى على صافينا وحصن الأكراد وعكا والقرين .

وخلال حروب بيبرس ضد الصليبيين حارب مغول فارس ودفع شرهم عن بلاد الشام . وعندما تولى السلطان السعيد بركة بن السلطان الظاهر الحكيم خراج إلى دمشق ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) فظن أمراء دمشق أنه يريد بهم سوءا فنووا السير إلى مصر لخلعه ، ونجحوا عام ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) في تحقيق هدفهم .

وفي عصر السلطان قلاوون خرج من مصر جيش لمقاتلة الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب الشام الذي خرج على طاعة السلطان عام ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) ، وانتهى الأمر بفرار الأمير سنقر بعد هزيمته .

وفي سنة ٦٨٠ هـ (٣٠ أكتوبر ١٢٨١) قاد قلاوون حملة لمقاتلة المغول ، وعند حمص نزلت بهم هزيمة ساحقة . وفي عام ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) هجم على الصليبيين الاستبارية في حصن المرقب واستولى عليه .

كما أرسل حملة عام ٦٨٦ هـ (أبريل ١٢٨٧ م) استولت على اللاذقية من الصليبيين . ومرة أخرى خرج قلاوون من مصر على رأس جيشه في فبراير ١٢٨٩ م للاستيلاء على طرابلس حيث سقطت عام ٦٨٨ هـ (أبريل ١٢٨٩ م) . ولجأ الصليبيون إلى خطب ود السلطان قلاوون بعد ذلك حتى وصلت بعض الحموع الصليبية من إيطاليا ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) لتفسد هذا الجوابعتائهم على المسلمين خارج أسوار عكا ، وبينما السلطان قلاوون يستعد للقيام بعمل حربي كبير ضد عكا إذ به يموت فجأة عام ٦٨٩ هـ (١٠ نوفمبر ١٢٩٠ م) .

وعندما تولى ابنه خليل الذي لقب بالأشرف بدأ بتأهب للخروج على رأس الحملة إلى الشام ، ووصلت الجيوش الإسلامية أمام عكا ٦٩٠ هـ (أوائل أبريل ١٢٩١ م) وافتتحها المسلمون في ١٨ مايو ١٢٩١ م) .

ولم يصبح للصليبيين بعد ذلك مقام في تلك البلاد .

وفي عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون أوغلت جيوش المغول في بلاد الشام ٦٩٧ هـ (١٢٩٨ م) وأنزلت الهزيمة بالمليك ودخلت دمشق ، فخرج جيش كبير من الممالك على رأسه السلطان الناصر قاصدا الشام ٦٩٨ هـ (١٢٩٩ م) ودخلوا دمشق .

المالِك البرجية :

وعندما انتقل الحكم إلى المالِك البرجية ، وتولى الظاهر برقوق الحكم ٧٨٤هـ (١٣٨٢م) --توالت المؤامرات ضده حتى نجح خصومه في إشعال ثورة بالشام ، وزحفوا إلى القاهرة . وقبضوا على برقوق ونفوه إلى الكرك . ٧٩١هـ (١٣٨٩م) .
ولكن (برقوق) ينجح في الفرار ويجمع جيشا ، ويهزم أعداءه عند صرحة ٧٩٢هـ (١٣٩٠م) ويدخل القاهرة ظافرا .

وأمام الخطر المغولي خرج برقوق على رأس حملة ٧٩٧هـ ١٣٩٥م ولكنه وجد أن تيمورلنك قد عاد إلى بلاده ، فرجع هو الآخر إلى القاهرة .
وخلف (برقوق) في الحكم أكبر أبنائه الناصر فرج ، وعندما سمع بعودة تيمورلنك واجتياحه حلب أسرع على رأس جيش كبير عام ٨٠٣هـ (١٤٠٠م) وعندما أدرك حرج موقفه عاد إلى القاهرة ، وترك جيشه يلقي أسوأ مصر .

وبعد موت السلطان الناصر فرج نشب خلاف حول السلطة بين كل من الأمير شيخ والأمير نوروز ٨١٥هـ (١٤١٢م) وأسفر الصراع عن تولي الأمير شيخ منصب السلطنة بعد أن تلقب بالمؤيد ، فثار نوروز في الشام فخرج السلطان المؤيد شيخ في العام التالي لتوليهِ إلى الشام وتخلص من نوروز بالقتل .
وخلال حكمه قام بمحلتين على الأطراف الشمالية لبلاد الشام لإرغام الدويلات التركمانية على الحدود للعودة إلى سابق تبعيتها للدولة المالِكِيَّة ، وقد خرج بنفسه على رأس الحملة الأولى ٨٢١هـ (١٤١٨م) . وأرسل ابنه إبراهيم على رأس الحملة الثانية ٨٢٢هـ (١٤١٩م) .
وقد حرص السلطان قايتباي بعد السلطنة ٨٧٢هـ (١٤٦٨م) على تأمين حدود دولته من ناحية الشمال ، فأرسل عدة حملات لتحقيق هذا الهدف .

وشهد عصر السلطان الغوري ٩٠٦هـ (١٥٠١م) نمو دولة العثمانيين وتزايد حوادث الاستفزاز من جانبهم .

وعندما انتصف شهر مايو ١٥١٦م (٩٢٢هـ) خرج الغوري على رأس جيشه إلى الشام ، ودارت المعركة بين الطرفين عند مرج دابق حيث حلت الهزيمة بالمالِك .

الفتح العثماني وسيناء :

السلطان سليم الأول : ١٥١٢ - ١٥٢٠م

عندما التفت جيوش السلطان سليم الأول بقوات قنصوه الغوري سلطان الدولة المملوكية في ساحة مرج دابق في سوريا (١٥١٦م) كان لقاء بين دولتين إحداهما فتية والأخرى ضعيفة ، ومن ثم كان

طبيعياً أن ينهزم المماليك ، ويقتل سلطانهم في المعركة .
وأسرع الأتراك العثمانيون بالتوغل جنوباً متعقبين فلول المماليك المهزومين ، وسقطت المدن السورية تباعاً في يد السلطان سليم الأول ، فاستولى على حلب وحماة وحمص ودمشق ، ثم تابع زحفه على مصر فدخل يافا وغزة والعريش ، ثم عبر صحراء سيناء ودخل الدلتا زاحفاً إلى بلبيس ، واستأنف زحفه قاصداً القاهرة والتقت قوات طومان باي في يناير ١٥١٧ م عند الريدانية بين المطرية والجبل الأحمر ، حيث انتصر الأتراك على المماليك ودخلوا القاهرة .

المماليك مرة أخرى

حملة على بك الكبير : ١٧٧١ - ١٧٧٣ م

ضم الشام :

كانت أحوال الشام تحت الحكم العثماني في أثناء القرن ١٨ تعكس نفس الضعف الذي كان قد أصاب بقية أنحاء الإمبراطورية ، وكانت الشام تشتمل على ديانات مختلفة وطوائف متعددة ، علاوة على وجود العنصيات ، وخاصة عند أهالي المناطق الجبلية وقبائل وعشائر البادية . وكثيراً ما كانت سلطة ممثل السلطان فيها لا تتعدى دائرة المدن والموانئ التي يحكمونها ، وفي مناطق كثيرة ظهرت شخصيات متميزة لم تخضع لسلطة الدولة إلا من الناحية الرسمية . ويهنا من هذه الشخصيات ، وفي الفترة التي ندرسها شخصية الشيخ ظاهر العمر . الذي تمكن من أن يصبح متصرفاً في صيدا ويافا وحيفاً والرملة ونابلس وصفد وعكا : أي أن سلطته امتدت على جميع سوريا الجنوبية أو فلسطين ، واتخذ من عكا مركزاً لشياخته الكبيرة . وهذه الشخصية ستؤثر في مصر ، وفي تاريخ مصر ، نتيجة لاتصالها بعلي بك الكبير ولوضع مشروعات عمل مشتركة بينهما .

وعندما تخلص علي بك الكبير من الباشا العثماني في القاهرة في سنة ١٧٦٨ أرسل إلى الشيخ ظاهر يعلمه بذلك ويعرض عليه التعاون معاً ضد مكاييد العثمانيين ، وفي نفس الوقت خشيت الدولة العثمانية إمكان إقامة تحالف بين أميرى مصر وفلسطين ، فوجهت إلى دمشق إلى ضرورة الحيلولة دون تلاقى جيشيهما وتقدم عثمان باشا صوب منطقة نفوذ الشيخ ظاهر . وعند بحيرة طبرية أظهر الشيخ ظاهر أنه قد انهزم وانسحب وترك معسكره ، الأمر الذي دفع العثمانيين إلى احتلال هذا المعسكر . وكان قد جمع القوات في المنطقة المحيطة ، ونزل بها ليلاً على الأتراك وهزمهم واستولى منهم على كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر ، وكان هذا الانتصار سبباً في عودة سلطة الشيخ ظاهر إلى ما كانت عليه ، ولكنه ظل يخشى مما قد تقدم عليه الدولة العثمانية ، فاتصل بعلي بك الكبير في أواخر سنة ١٧٧١ لكي ينجده من الخطر المحدق به .

وكانت قوات على بك قد عادت مظفرة في ذلك الوقت من الحجاز ، فوافق على الدخول إلى العمليات في الشام . وعين على بك عبد الرحمن أغا الإنكشارية قائداً لتحريره كانت مهمتها تأمين الطرق بين مصر وفلسطين ، وقامت هذه الحملة بمهمتها . وتخلصت من الشيخ سيوط شيخ عربان غزة . ثم أرسل على بك حملة ثانية كانت بقيادة إسماعيل بك ، وكان عدد رجالها يزيد على عشرة آلاف مقاتل ، وسارت بطريق البر في الوقت الذي رحلت فيه حملة ثالثة من دمياط نحواً ثم أردوها حملة جديدة . وكان لنزول القوات المملوكية المصرية إلى سوريا الجنوبية تأثير كبير على القيادة العثمانية في الشام . وانسحب عثمان باشا بسرعة من منطقة القدس إلى دمشق ، وفي ذلك الوقت تقدم الشيخ ظاهر لملاقاة حلفائه المائيك . واستعد للزحف على دمشق .

والظاهر أن إسماعيل بك تردد في مهاجمة عثمان باشا حينما ادعى هذا الأخير أنه خارج للحج ، وفي نفس الوقت عززت الدولة العثمانية قواتها في الشام . فأرسل الشيخ ظاهر إلى على بك يطلب قائداً أطلع ومدداً أوفر . ولاشك في أن نزول القوات المصرية إلى فلسطين قد أظهر صلاحية هذه الأراضي لاتخاذها قاعدة حربية لعمليات الجيش المملوكي في كل سوريا . ولكنه أظهر كذلك حجة هذه العمليات إلى المدفعية ، وضرورة الحصول على مساعدة من جانب البحر وخاصة أن الطريق البري كان طويلاً ومهدداً . وكانت هذه الضرورة هي التي وجهت على بك الكبير إلى أن يستمع لاقتراح روسي ويتصل بجمهورية السندقية لكي يحصل على ما يريد . ويعرض عليها في نفس الوقت محلفته ومساعدته على امتلاك بعض الجزر العثمانية في البحر المتوسط وإعادة تجارتها مع المشرق إلى ما كانت عليه من قبل .

ولكن ظروف جمهورية السندقية في ذلك الوقت اضطرتها إلى تقديم الشكر وإلى الاعتذار في نفس الوقت ، وكانت العمليات الحربية قد تجددت بين الدولة العثمانية وروسيا بشكل احتجز معظم القوات العثمانية في البلقان . وتمكن الأسطول الروسي من أن يعمل في البحر المتوسط ويحاول إثارة الولايات والعصبيات والأقليات على الدولة العثمانية فلم يجد على بك غضاضة من أن يحصل على حاجته عن طريق روسيا والأسطول الروسي . وكتب على بك إلى الكونت أورلوف قائد الأسطول الروسي في البحر المتوسط وأبدى رغبته في عقد معاهدة تحالف وصداقة مع روسيا ، ووعده بكل ما يحتاج إليه جيشه وأسطوله من مئة ومان وظبب إليه في نظير ذلك أن يزوده بالمدفعية وبعده من المهندسين ، وشجع الكونت هذه الحركة وواعد بعرض هذه الطلبات على كاترين الثانية إمبراطورة روسيا .

وبصل بهذا إلى انقسام واضح في منطقة سوريا بين قوات الدولة العثمانية المتمركزة في نصفها الشمالي وقوات على بك والشيخ ظاهر التي في فلسطين . ومع هذا الانقسام كان هناك انقسام واضح آخر . إذ أن اتصال على بك بالأسطول الروسي في وقت محاربة روسيا للدولة العثمانية دولة الخلافة الإسلامية - كان يؤدي إلى تداخل معنى ، وعلى أساس ديني بين عدد من رجال على بك نفسه .

وإذا كان الجيش العثماني يحظى بإمداد وتموين يأتي له من آسيا الصغرى ، وعلى اتصال بعاصمة الدولة - فإن قوات على بك الكبير كانت في حاجة إلى إمدادات ومعونات تأتي لها عن طريق البحر ولم تكن واثقة من وصولها ما دامت كاترين الثانية لم تكن قد أخذت قراراً في الأمر بعد .

واهتم على بك بتجهيز الحملة الجديدة التي حاول أن يصل بها إلى إنهاء الخطر العثماني من سوريا . وبلغ عدد رجالها أربعين ألف مقاتل ، زودهم بما يحتاجون إليه من سلاح وذخيرة وعتاد وعين محمد بك أبو الذهب بطل حملة الحجاز قائداً عاماً ، وكانت تجريدة كبيرة ، وخرجوا في تحمل زائد واستعداد عظيم ! . . . ومعهم الطبول والزهور والذخائر . . . والمدافع والجبانات ، وأجناس العالم ألوفاً مؤلفة . كما يقول الجبرتي ، ولقد اضطر على بك إلى فرض مبالغ على كل مدينة في مصر ، وفرض أموالاً على اليهود والأقباط حتى يتمكن من تجهيز هذه الحملة ، وزحفت الحملة في شهر ديسمبر ١٧٧١ واحتلت غزة . وانضمت إليها حملة إسمايل بك التي كانت هناك ، ثم استولت على الرملة ونابلس . وحين اقتربت القوات المملوكية من بيت المقدس اشترط رجال الدين وقضاة المدينة عدم قيامها بعمليات في المدينة المقدسة . وسلمت يافا بعد حصار شهرين ثم انضمت قوات الشيخ ظاهر إلى القوات المصرية واحتلوا صيدا ودخل أبو الذهب دمشق يوم ٦ يونيو سنة ١٧٧١ دون أن تسيل قطرة واحدة من الدماء ، وارتدت حامية المدينة إلى القلعة وتحصنت بها ثم حاصرتها القوات المصرية واضطرت إلى التسليم . ودخل أبو الذهب دار الوزارة في دمشق وجلس حيث كان يجلس ممثلاً السلطان .

ووصل صدى هذا الانتصار إلى القاهرة واحتفل به على بك احتفالاً كبيراً ، فزينت مصر ويولاق ومصر العتيقة زينة عظيمة ٣ أيام بلياليها . وتفاخروا في ذلك إلى الغاية . وتعاضم على بك على نفسه ولم يكتف بذلك ، فأرسل إلى محمد بك يأمره بتقليد الأمراء المناصب والولايات على البلاد التي فتحوها وملكوها .

وأصبح على بك سيداً على سوريا وأصبح في وسعه أن يعلن نفسه سلطاناً على مصر وسوريا . وكان هذا أقصى ما وصل إليه نفوذ على بك الكبير .

وفي ليلة ١٠ يونيو ١٧٧١ بدأ نجم على بك على الأفول : ذلك أن محمد أبو الذهب قد عاد سريعا إلى مصر ، وسحب في طريق عودته جميع الحاميات التي كان قد تركها في البلاد المفتوحة ، وبدأ يحارب سيده وولى نعمته .

وأخذت عودة محمد بك أبو الذهب من الشام شكلا سريعا قارب شكل الفرار أكثر من شكل التفهق أو قارب شكل الهجوم المفاجئ السريع على مصر . وكان محمد بك أبو الذهب يتخلص من كل ما يعوق سرعة تقدمه وبشكل جعله يصل إلى القاهرة بعد ساعات قليلة من وصول نواب عودته إلى على بك .

ولا شك في أنه كان يرغب بذلك الإفادة من عنصر المفاجأة حتى يسهل عليه إتمام الانقلاب . وبعد وصول أبو الذهب إلى القاهرة تمهيدا للانقلاب على سيده أصدر على بك قرارا بنفيه إلى الصعيد تمهيدا للتخلص منه . وبعد أن اعتقد على بك أنه قد أمن على موقفه إلى درجة ما وخاصة أنه أرسل بعد ذلك حملة جديدة إلى سوريا الجنوبية لمساعدة الشيخ ظاهر وكانت تبلغ ما يقرب من ٥٠٠ أو ٦٠٠ فارس تمكنت من الانتصار على قوات عثمان باشا قرب نهر الأردن في شهر سبتمبر ١٧٧٢ . ولكن قلة عدد قوات هذه الحملة كانت تدل على أن (على بك) لم يكن مطمئنا كل الاطمئنان للموقف الداخلى في مصر نفسها ، وأنه كان يتوقع بعض الأحداث ويرغب في أن يكون مستعدا لمواجهةها .

هرب على بك إلى عكا :

استعد على بك بسرعة للخروج من القاهرة ، وعمل على تجهيز متاعه الخاص ، وأرسل يأمر المعلم (رزق) المتصرف في الشؤون المالية بإحضار ما بالخزانة من أموال ولكنه لم يجد المعلم رزق الذى كان قد اختفى .

وفي نفس الوقت اتصل على بك بسرعة عن طريق يعقوب الأرمنى بالكونت أورلوف قائد الأسطول الروسى . وأبلغه ما حدث ، وأنه ذاهب إلى سوريا ، وطلب منه أن يرسل إليه هناك مددا من الجنود والمدافع والخبراء يستعين بهم على العودة إلى مصر ، ثم خرج من القاهرة في ليلة ١٢ من أبريل سنة ١٧٧٢ ، وكانت معه قوة لا تتجاوز ٧ آلاف رجل بين فرسان ومشاة ، وكان ستة وعشرون بعيرا تنقل ماله وثيابه . وكانت ثروته الخاصة تقدر بثمانمائة ألف محبوب ، هذا علاوة على كمية من المجوهرات تزيد قيمتها على ٨ ملايين من الروقات . وأسرع في السير حتى لا يلحق به أبو الذهب ، ووصل إلى عكا بعد ١١ يوما .

دخل أبو الذهب إلى القاهرة في اليوم التالى لخروج سيده منها ، وبعد أن كان قد غاب عنها سبعين يوما وتخلص من أعوان سيده بالسجن وبالقتل ، وأمر بإبطال النقود التى حملت اسم على بك ، وأرسل يبشر الباب العالى بما قام به .

ومن ناحية أخرى كان على بك قد وصل إلى الشام منهكا كسير النفس ، وأصابته حمى شديدة ، وإن كان الشيخ ظاهر قد عمل على طمأنته ورفع روحه المعنوية .

ومرت بعض قطع الأسطول الروسى في ميناء عكا بقيادة الفارمى ريزو فتزل مع بعض الضباط لتحية على بك ، وانتهز هذا الأخير الفرصة ، وأرسل معه ذو الفقار بك يحمل هدية إلى الكونت أورلوف مع رسالة جديدة يرجو فيها إرسال بعض قطع المدفعية والذخيرة مع ثلثمائة جندي من البلقانيين الذين يخدمون في قوات روسيا نظرا لحاجته الشديدة إليهم في عملية عودته لاستعادة السلطة في مصر .

وكان على بك في موقف صعب وهو في سوريا وخاصة أن الدولة العثمانية كانت تواصل الضغط على هذه المنطقة لكي تخضعها وتقضي على شوكة سادتها والعصبيات التي فيها ، وأخذت القوات العثمانية تهدد صيدا ، فاشتكرت قوات على بك وقوات الشيخ ظاهر في الدفاع عن هذه المدينة ، وتمكن المالك وحلفاؤهم من رد هجوم العثمانيين عن المدينة . ورفع هذا الانتصار من روح على بك المعنوية ، وعمل على دعم سلطته في المنطقة حتى يسهل عليه أمر التقدم من جديد إلى مصر بمجرد مجيء المدد الروسي . وبدأ بحصار يافا وساعدت سفن الشيخ ظاهر في نقل العتاد والتموين في هذه العملية ، لكن قائد الحامية رفض التسليم رغم إحكام الحصار على هذه المدينة ، وكان قد اخترن فيها قدرا كبيرا من الزاد والعتاد ، وأمر على بك بنصب المدافع تجاه الباب الشرق للمدينة ، ولكن دون أن يتمكن من الوصول إلى نتيجة حاسمة ، فاضطر على بك إلى فتح غزة واللد والرملة والسيطرة عليها ، وعاد بعد ذلك إلى يافا من جديد ، واشتد الحصار وأمر على بك بقطع أشجار الفاكهة المحيطة بالمدينة لتضييق الحصار على من كان بها ولحرمانهم من الوقود اللازم لهم .

وعاد ذو الفقار على سفينة روسية ، ومعه يعقوب الأرمني ، وكانت السفينة تحمل النجدة الروسية التي تمثل في ضابطين وثلاثة مدافع للميدان من النحاس وسبعة بنادق مع ٥٠٠ طلقة . وحمل يعقوب الأرمني رد أورلوف الذي وعد على بك بالعمل على إرسال نجدة سريعة ، ووضعت هذه المدافع الثلاثة معززة لمدافع على بك الكبير .

ولكن أحد الضابطين الروسيين أصابته طلقة قضت عليه ، فطلب على بك من السفينة الروسية ٣ مدافع أخرى . ويرغم تصدع بعض الأجزاء من الأسوار فإن المدافعين استماتوا بدرجة أجبرت المهاجمين على الارتداد عن المدينة بعد تحملهم خسائر كبيرة ، وعاد الضابط الروسي الثاني إلى سفينته . وظل الموقف على ما هو عليه حتى بعد مجيء بعض قطع الأسطول الروسي في منتصف شهر ديسمبر ومشاركتها في ضرب يافا بالمدفعية من جهة البحر .

وأدى الحصار فعله مع الزمن وخاصة أن سفن الشيخ ظاهر منعت من الدخول إلى هذه المدينة في الأول من فبراير سنة ١٧٧٣ . أي بعد ثمانية أشهر من الحصار ، وكان فتح يافا مشجعا لعلى بك الكبير على الاستعداد للعودة إلى مصر .

ومن القاهرة كان محمد بك أبو الذهب يفكر في الموقف ، ويجد أنه من الأصوب فصل الشيخ ظاهر عن على بك ، والإسراع بملاقاة قوات على بك قبل أن تتم استعدادها ، أي في أقرب فرصة ممكنة . ويأجذا الأمر لو كان هذا اللقاء قريبا من الأرض الخضراء من قواعده هو في مصر ، وبعد أن تكون قوات على بك قد أنهكت بالسير في شمالي صحراء سيناء حتى يسهل توجيه الضربة إليهم . إذن فقد كان من اللازم استدراج على بك الكبير مع ما تمكن من جمعه من قوات حتى ذلك الوقت إلى مصر من جديد .

وأوعز محمد بك أبو الذهب - إلى بعض البكوات الموالين وبعض ضباط الفرق بأن يكتبوا إلى على بك يستجدونه من ظلم (أبو الذهب) ومن قسوته ، ويغرونه بالعودة إلى مصر .

وتحت الخدعة وعاد مندوب على بك من طرف الكونت أورلوف دون أن يصطحب معه مددا ، فعمل الشيخ ظاهر على مساعدة حليفه ، وأمر بحماية الأموال المقررة على غزة واللد والرمة وجمع ما قد يوجد بها من مؤن وعلف للجيش وللخيول ، وسحبت حاميات هذه المدن ، وبدأ الجيش يتحرك في أوائل مارس ١٧٧٣ ، وكان مكونا من ممالك على بك ومن جنود الشيخ ظاهر ، علاوة على ثلاثة آلاف جندي من المغاربة ، أى أن هذه القوات لم تزد في عددها على ٨ آلاف من فرسان ومشاة . ووصلت قوات على بك الكبير بعد مرورها في غزة وفي خان يونس ، إلى الصالحية في ٤ من إبريل ١٧٧٣ ، وهناك التقت هي وطلائع جيش محمد بك أبي الذهب ، وبرغم تفوق جيش أبي الذهب في العدد على المهاجمين فإن المعركة لم تستمر إلا ساعات مئ في الجيش المدافع بخسائر فادحة ، واضطر للانسحاب ، ودخلت قوات على بك الكبير إلى الصالحية بقيادة على بك الطضاوى .

وتمكن محمد بك أبو الذهب من تكوين جيش كبير لمواجهة به قوات على بك التي في الصالحية ، وبلغت هذه الأخبار إلى مسامع على بك ، فعزّن لها ، ولكنه استمر في تدريب قواته برغم إنباك قوته وانخفاض روحه المعنوية وإصابته بالحمى من جديد ، والتقت القوتان في يوم ١٣ أبريل . وكان جيش على بك أكثر تنظيما ، برغم قلة عدده ، وبدأت المعركة قبيل الظهر : الفرسان في الجناحين ، والمشاة في القلب - وصادف أحد الجناحين نجاحا ، وكان بقيادة على بك الطضاوى ، أما الجناح الأخر فقد انهزم وكان بقيادة ولدى الشيخ ظاهر العمر . ولكن المشاة انضموا إلى قوات محمد بك (أبو الذهب) فتغير شكل المعركة بوضوح .

وشعر على بك الكبير أنه فقد كل شيء ، ولكنه صمم على الصمود ثم سمح لرحاله بالانسحاب قبل اقتراب الحسم ، وظل في الميدان مع بعض حصته ، وهجم كخي (أبو الذهب) ومعه نحو الثلاثين رجلا على فسطاط على بك واقتحموا بابه برغم مقاومة عشرة من مماليكته قتل وجرح في أثناءها بعض المهاجمين . ولما أحاطوا بعلى بك فرغ برغم مرضه إلى سيفه فشرعه لندفاع عن نفسه ، وصرع أول قادم بضربة واحدة وجرح اثنين آخرين . وعندما تبين للمهاجمين حراً المدافع عن نفسه أطلقوا عليه النار فأصيب في ذراعه اليمنى واليسرى بضلقتين ، ولكنه لم ينفلك يقاوم ، وأطلق النار عليه بيده اليسرى فجرح الكخيا ولكنه خر على الأرض صريعا بعد أن أصابته يده اليسرى طعنة سيف ، فحملوه جرحا سيرا إلى فسطاط أبي الذهب .

وكانت هذه الموقعة حاسمة في حياة على بك الكبير ، كما كانت هامة بالنسبة لتغير سير الأمور في مصر ، وقضت على هذا الاتجاه الاستقلالي عن الدولة العثمانية حتى لو كانت عودة سلطة هذه الدولة على مصر عودة اسمية ما دامت القوة الفعلية ظلت مركزة في الممالك .

وبعد وصول على بك إلى معسكر أبى الذهب قام هذا الأخير وقبل يده وحاكاه فى ذلك بقية الممالك ، وكان الرباط بين المملوك وسيدته من القوة بشكل يصعب على الأحداث أن تفصم عراه . وحملوا (على بك) فى محفة إلى داره بالأزبكية ، وأحضروا أحد الأطباء لمعالجته ، ولكنه توفى بعد بضعة أيام فى أوائل شهر مايو ١٧٧٣ .

نابليون بوناپرت وسيناء :

فى ٢٧ يونيو عام ١٧٩٨ وصلت قوات نابليون إلى الإسكندرية ، وبدأ احتلال الإسكندرية فى ٢ يوليو بعد مقاومة من جانب أهلها دامت بضع ساعات . وفى مساء ٣ يوليو بدأ زحف الحملة على القاهرة من طريقين :

١ - حملة برية وهى الرئيسة وتتقدم على الطريق البرى .

٢ - حملة بحرية تتألف من سفن الأسطول الخفيفة تسير فى فرع رشيد لتقابل الحملة البرية قرب القاهرة .

وفى أثناء زحف الحملة إلى القاهرة حدثت فى ١٣ يوليو مناوشات بين الفرنسيين وجيش مراد وأسطوله فى شبراخيت انهزم فيها مراد وتقهقر إلى القاهرة ، ثم تلا ذلك فى ٢١ يوليو موقعة إمبابية أو الأهرام التى حلت فيها الهزيمة بجيش مراد ، فانسحب بقلوب جيشه إلى الصعيد فى حين فر إبراهيم متجهاً إلى سوريا ، وقد حمل أمواله ونفائسه وصحبه الباشا العثمانى والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف وقاضى القضاة العثمانى .

وفى ٢٤ يوليو دخل بوناپرت القاهرة ثم أرسل الجنرال رينيه لمطاردة قوات إبراهيم فى الشرقية والجنرال ديزيه لمطاردة مراد فى الصعيد . ثم لحق بوناپرت نفسه برينيه فى مطاردة إبراهيم ، ولكن الأخير تمكن من الفرار إلى سوريا عن طريق سيناء ، وعاد بوناپرت إلى القاهرة بعد أن قامت بعض القلائل بالقاهرة واستعداد تركيا لدفع قواتها لمحاربة بوناپرت فى مصر ، وقد قرر بوناپرت القيام بحملة على الشام تهدف إلى :

١ - تأمين المستعمرة الفرنسية فى مصر بإنشاء معازل عسكرية فرنسية وراء صحراء سيناء لتقابل القوات العثمانية .

٢ - الضغط على الباب العالى لكى يتخذ موقفاً ودياً مع فرنسا .

٣ - حرمان الأسطول البريطانى من مراكز التكوين على طول سواحل بلاد الشام .

وفى ١٠ فبراير عام ١٧٩٩ غادر بوناپرت القاهرة على رأس حملة فاستولى على العرش فى ٢٠ فبراير ، ثم على غزة والرملة واللد ودخل يافا عنوة فى شهر مارس وقتل ١٢٠٠ أسير . وفى يافا وجد بوناپرت عدداً كبيراً من المصريين المحتمين فى قلعتها ومن بينهم السيد عمر مكرم ، فلم يتعرض لهم

بسوء ، بل أعطاهم الأمان وأمر برجعهم إلى بلدهم مكرمين . ثم استأنف بونايرت الزحف حيث استولى على حيفا ، ثم قدم عكا حيث لم يستطع دخولها ، وقرر العودة إلى مصر وفي ٢٠ مايو صدرت الأوامر باتخاذ الترتيبات اللازمة لتنظيم تقهقر الجيش من عكا والعودة إلى مصر ، فغادر الجيش عكا متقهقراً إلى يافا وغزة والعريش وفي ١٤ يونيو دخل بونايرت القاهرة دخول الظافر المنتصر . وقرر بونايرت بعد ذلك العودة إلى فرنسا سراً وتولى كليبر القيادة ، ووقعت بعد ذلك اتفاقية العريش بين الفرنسيين والعثمانيين التي نصت على الانسحاب من مصر .

محمد علي :

كانت أطماع محمد علي لا تقف عند حد ، فقد كان حاكماً طموحاً ، فبعد انتصاراته ووصول جيوشه إلى الجزيرة العربية والسودان تحول إلى الشام التي وعده بها السلطان العثماني محمود الثاني والذي لم يضع وعده موضع التنفيذ .

واستغل محمد علي خلافاً نشب بينه وبين عبد الله الجزائر وإلى عكا ، فأنفذ جيشاً قوامه ٤٠ ألف مقاتل بقيادة ابنه إبراهيم باشا في ١٤ أكتوبر ١٨٤١ .

وعبرت الحملة سيناء ، واحتلت غزة والرملة ويافا وحيفا والقدس دون مقاومة ، واستولى على عكا عنوة بعد حصار برى وبخري في ٢٧ مايو عام ١٨٣٢ . وواصل إبراهيم باشا تقدمه صوب دمشق ، وهزم الجيش العثماني ، في حمص وحلب ، وفي ٢٩ يولية ١٨٣٢ اجتاز محمد بايلاان وحقق انتصاراً حاسماً في بايلاان وأصبحت سوريا بأكملها بعده في قبضته . ودخل الإسكندرونه حيث ظفر بالجيش العثماني الذي أرسله الباب العثماني بعدها عبر جبال طوروس وتوغل في الأناضول وأحرر نصراً كبيراً في قونية على الجيش العثماني في ٢١ ديسمبر ، وواصل تقدمه حتى وصل إلى كوتاهية وقارب الأستانة . وانتهى هذا الفصل الذي عرف باسم حرب الشام الأولى بتوقيع معاهدة كوتاهية في ٤ مايو عام ١٨٣٣ التي قضت بضم سوريا وأطنة إلى مصر وتولية إبراهيم باشا عليها .

وأتى توقيع المعاهدة نتيجة لتدخل الدول الأجنبية ، وبعد توقيع المعاهدة عاد إبراهيم باشا إلى سوريا وجعل من أنطاكية عاصمة له .

بعدها نقض الأتراك المعاهدة ، وحشد السلطان محمود جيشاً ضخماً لغزو سوريا ، فتجدد القتال بين المصريين والأتراك فيما سمي بعد ذلك بحرب الشام الثانية ، وحقق إبراهيم عدداً من الانتصارات على لقوات التركية ، ولكن انتصاره الأكبر كان في معركة ريبب لفافلة في ٢٤ يونيو ١٨٣٩ . وكانت آخر وأكبر انتصاراته ، وبدأ التدخل الأجنبي الذي انتهى بمعاهدة لندن عام ١٨٤٠ . وترجعت لقوات المصرية من الشام تحت ضغط القوى العسكرية الأوروبية .

حملة الأتراك الأولى ١٩١٥ :

شهدت شبه جزيرة سيناء عام ١٩١٥ حملة تركية تعاونها بعض العناصر الألمانية الفنية ترحف في طريقها إلى قناة السويس .

وقد قضت خطة الحملة التي ضمت ٣٠ ألف جندي بالزحف خلال الطرق الرئيسة الثلاث في سيناء آنذاك وهي :

- ١ - طريق الساحل الممتد من العريش ماراً ببئر العبد .
- ٢ - طريق وسط سيناء عبر تلال سيناء ، وتخترق عدة دروب مارة بالحسنة وبئر حمة والجفجافة .

٣ - طريق الحج وتمتد من نخل إلى السويس .

وقد تقدمت القوات التركية في ١٣ يناير ١٩١٥ وفي ٢٧ يناير هجمت على القوات البريطانية المدافعة عن شمال السويس وفي ٢٨ يناير هجمت على القنطرة للمرة الثانية بعد أن كانت قد هجمت على منطقة تبعد عنها بمسافة ثمانية أميال هي نقطة التل ٧٠ ، يوم ١٥ يناير .

وفي أوائل فبراير اشتبكت المواقع الأمامية البريطانية والأتراك في منطقة طولها ٢٠ ميلاً من سرايوم إلى الفردان .

وفي ليلة ٣/٢ فبراير تحرك الأتراك للهجوم على الكوبرى والفردان ، وباء الهجوم بالفشل وبرغم ذلك تقدموا خلال نهار ٣ فبراير وحاولوا العبور في المنطقة بين طوسون وسرايوم ، وقاموا بهجوم مخادع عبر الفردان والقنطرة وقشل الهجوم .

وفي يوم ٥ فبراير أصدر جمال باشا القائد العام أمره بالانسحاب على جميع الطرق إلى بئر سبع .

حملة الأتراك الثانية :

بعد حملة الأتراك الأولى عادت القوات الإنجليزية تخطط أوضاع قواتها للدفاع عن سيناء لمواجهة أى محاولة جديدة يقوم بها الأتراك .

وفي ٩ يولية عام ١٩١٦ بدأت الحملة التركية الثانية تقدمها من بئر سبع فوصلت إلى بئر العبد وواصلت السير في ١٩ يولية ;

وفي ٣ أغسطس احتل الأتراك قاطية والرياح .

وفي منتصف ليلة ٤/٣ أغسطس ١٩١٦ زحف الأتراك للهجوم على القوات الإنجليزية في رمانة ، ولكن الهجوم انتهى بكارثة إذ خسر الأتراك خلاله حوالى خمسة آلاف قتيل وجريح بالإضافة إلى

أربعة آلاف وقعوا أسرى ، بعدها انسحب الأتراك حتى بئر العبد ، وحدثت عدة معارك فرعية عند بئر العبد وحوض العيوض لم تؤد إلى نتائج حاسمة .
وفي فجر ٢٣ ديسمبر ١٩١٦ أحكمت القوات الإنجليزية الضغط على القوات التركية عند المقضبة وتم لها الاستيلاء عليها .
وفي ٣٠ ديسمبر أخلى الأتراك العريش . وفي ٩ يناير ١٩١٧ آلت رفع إلى قبضة الجيش الإنجليزي .
وهكذا تم تطهير سيناء من القوات التركية المهاجمة .

الجولات المصرية الإسرائيلية الأربع

١٩٤٨ - ١٩٧٣ :

بدأت سيناء تشهد فصولا من الصراع الإسرائيلي ابتداء من شهر مايو ١٩٤٨ .
فقد بدأت وحدات من المتطوعين تعبر سيناء في طريقها إلى فلسطين للمشاركة في درء الخطر الصهيوني . . بعدها شهدت نفس الطرق وحدات الجيش المصري تتقدم لمقاومة إنشاء دولة إسرائيل . . واستمر الصراع حتى تم توقيع اتفاق رودس . .
ولم تمض تسع سنوات حتى شهدت طرق سيناء القوات الإسرائيلية تتقدم على عدة محاور استكمالاً لمخطط العدوان الثلاثي . .
ولم ينته الموقف بانسحاب القوات المصرية ، فقد عادت وحدات الجيش المصري مرة أخرى خلال عام ١٩٥٧ ، ودخلت غزة خلال شهر مارس من نفس العام . .
وكان مقدراً أن تشهد سيناء أسوأ هزيمة لحقت بالجيش المصري في يونيو ١٩٦٧ نتيجة فساد القيادتين السياسية والعسكرية . .
واستمرت قوات إسرائيل تحتل سيناء وترفع أعلامها في مواجهة شاطئ القناة الغربي حتى أكتوبر عام ١٩٧٣ . .
وأيضاً كان قد شهد أول انتصار مصري وأول هجوم ناجح للجيش المصري بعد أكثر من ١٣٠ عاماً . .
وعادت وحدات وتشكيلات الجيش المصري تتقدم في اتجاه الشرق . .
وبعد اتفاقية الفصل الثانية للقوات تقدمت عدة كيلومترات شرقاً . .
وستظل سيناء بموقعها الفريد مسرحاً للعمليات العسكرية ومراً للجيش والحملات العسكرية .